
www.kotobarabia.com
رواية
ظل النار
www.kotobarabia.com
يوسف أبو ريه

طــــلل الـنــــار

يوسف أبو ريه

فهرس

فهرس ٣

القسـ ـ ـ ـم الأول................................٦

طـ ـ ـ ـلل النـ ـ ـار.......................... ٧

مدينة صغيرة تحت الأرض ٥٣

الفارس وأنا في غرفتي......................... ٦٧

القسم الثاني................................... ٧٢

بئر الماء الساخن.............................. ٧٣

مصبـ ـ ـ ـاح الجـ ـ ـ ـاز............... ٨٠

الـ ـ ـدار الأخـ ـ ـ ـ ـرى ٨٦

المقهى أغلق أبوابه............................ ٩١

انطـ ـ ـفـ ـ ـ ـ ـ ـاء ٩٨

القسم الثالث................................. ١٠٨

عيون سوداء في العرس.....................١٠٩

الكتاب فوق التل...............................١١٩

شمس السحب السوداء..........................١٢٨
الـ ـدوران....................................١٣٨
شتـ ـ ـاء المدينـ ـ ـ ـة........................١٤٩
صدر للمؤلف: ١٥٩
تحت الطبع: ١٥٩

"وأرادت أن تسجد أمام الصنم، لكنّ الطفل صاح:

"إني لم أمت. فتعالي هنا يا أمّي فإنّي بخير، وإن كان ظاهري أنني وسط النار! إنّ هذه النار حجاب للعين، يمنع عنها الرؤية، فها هي ذي الرحمة قد أطلّت من الخفاء.

فتعالى يا أمي، وانظري برهان الحـق. (انظـري) لتشاهدي سعادة أصفياء الحقّ!

تعالي وانظري الماء الذي يتبدى لك نارا، ودعي هذا العالم الذي هو نار تبدو كالماء؟

أقبلي، وادعي الآخرين (للحضور) معك، فكل شيء سوى هذه العذوبة عذاب!

أقبلوا جميعا مثل الفَراش! أقبلوا إلى ذلك الخطّ، فهنا مائة ربيع!

كان الطفل يصبح على تلك الوتيرة وسـط الجمـع، فامتلأت قلوب الناس رهبةً وخوفًا.

فأخذ الخلق من رجال ونساء – دون وعي مـنهم – يلقون بأنفسهم في النار"

(بتصرف من مثنوي جلال الدين الرومي)

القســــم الأول

طـــــلال النـــــار

رأيت أمين الأعمى أمام فوهة الفاخورة الملتهبـة، يلقمها حفنات من "السرس" فتلعلع النار الحمراء وتمد ألسنتها في موجات متعاقبة تطلب المزيد، وهو ينحني على الجـوال أمامه، ويقذف في الفم النهم، والطفل الذي رأيته فجـأة فـي ظلام الشارع، سار بخطوه المهزوز بين أواني الفخار الطرية المصفوفة على حبات الحصى.

قلت: إن سقط سيفسد الآنية، وربما يؤذيه صـاحب الفاخورة.

ولحقت به، ورفعته بين ذراعي، وعدت به إلى الدار التي خرج منها، كانت للدار رحبة مبلطة، ينفتح عليها بـاب خشبي سميك، ووجدت الباب مواربا، طرقت بجانب يـدي، ولم أسمع ردا، برغم النور الذي يضيء الصـالة، وصـوت المذياع يتردد من مكان ما، ورأيت وجه الطفل في النـور، فكان يشبهني تماما، وهو حملق في مشدوها وأنا ثبت نظري عليه، وتذكرت أن تلك الدار كانت لنا، في يوم بعيد، وجرئت على الدخول.

كانت أمي بطرحتها البيضاء جالسة علـى الكنبـة، وجهها على يدها، وإلى جوارها أختي الكبيرة، وانتبهت أمي،

وقامت إلي لترفعني بين ذراعيها، ووجدتني خفيفًا، وقابلاً للحمل، ومددت جسدي على وركيها، وقالت: قلت لك أكثر من مرة لا تذهب عند الفاخورة.. ألا تخاف ظلام الشارع؟

وسألتها: هل سمحوا لك بالعودة مرة أخرى؟

قالت وهي تلملمني إلى صدرها بحنو: من الذين سمحوا لي؟

ونظرت إلى أختي بذهول، وواصلت أنا الكلام: استدعوني من عملي، وقالوا لي أمك مريضة وهي في شوقٍ لرؤياك، وركبت قطار الليل حتى وصلت إلى البلد صباحا، وجدت النعش والمغسلة مركونين على جدار الدار، والرجال اصطفوا على الكراسي، وأدركت أنك رحلت دون أن أحضر ساعتك الأخيرة.

- أنت يا ولد تتحدث عن موتي بجرأة.. ألا يحزنك أن ترحل أمك، وتدعك صغيرا لا حول لك ولا قوة؟

- ولكنكِ مت وأنا كبير أتحمل المسئولية، ورغم ذلك حين وجدتكِ ممددة جهة القبلة لم أتمالك، ورحت أبكي كطفل، ثم سحبوني بعيدا عنك، في تلك الدار المجاورة للطاحونة.

- ولكنها مسكونة الآن.

- سيتركها المستأجر يوما وننتقل إليهـا، وقبـل أن يحدث ذلك سنعيش في دار ودار ودار.

- ربما.. ولكن يجب أن تنام.

وبدأت تهدهدني، واستسلمت لها، ولما استشعرت ثقل جفوني، قاومت النوم، وانسللت من حجرة أمي التي تركتهـا على حالها كما رأيتها عند دخولي، واتجهت إلـى الحجـرة التالية.

في هذه الحجرة كنت – في يوم ما – أقضي القيلولة على سرير مرتفع إلى جوار أمي، وأختـي الكبيـرة كانـت تقضي وقتها وحيدة في حجرة الجلوس، لما سـمعت الـدفع القوي على الباب، فتحته، لتجد زوجة أبي، وأزاحتهـا مـن أمامها، واقتحمت الدار إلى الحجرة التي تنـام فيهـا أمـي، وجرجرتها إلى أرض الحجرة، وقامت أمـي فزعـة، وأنـا صرخت، وأختي الكبيرة انسحبت بهدوء إلى حجرة الجلوس، ولم تهتم، واستطاعت أمي أن تتمالك نفسـها وتفيـق مـن المفاجأة، كانت زوجة أبي تصرخ في وجهها بكلام لا أفهمه،

والتقطت أذني كلمات متناثرة، أنها ستتزوج " سيد سـيده.."
" أنت يا سارقة العرسان..".

وتذكرت هذا الرجل الأنيق الذي يختلي بأختي فـي الحجرة، وكنت أتطفل عليهما، وأقعـد بينهمـا، ويمنحنـي القرش، لأذهب به إلى الدكان، وغافلني مرة، وقبلهـا علـى خدها ونقلت ذلك إلى أمي. فقالت: لا عليك فهو فـي حكـم الزوج.

وكان يحلو له الجلوس علـى كرسـي وراء البـاب يراقب المارة.

وجاء يوما ومعه نسوة من أقاربه يرفعن السلال على رءوسهن، ويزغردن، لما سمعت أمي الزغاريـد خرجـت إليهن، وطوحت السلال عن رءوسهن وهي تبكي وصرخت فيهن: أليست في قلوبكن رحمة!

وكانت حزينة لأن أخاها الأكبر يقضي مدة عقوبـة في سجن العاصمة، وقالت لها أم العريس: دعينا نفرح.. إنه ولدي الوحيد.

لكن أمي أزاحتهن عنها، وحلفت ألا يدخلن، وكـان الرجال قد افترشوا الحصر الجديدة في حوش الدار الكبيـرة،

وكان أبي بينهم يستقبلهم هاشا، وجاء إلـى النسـوة يطيـب خاطرهن، وقال لهن: إن قلبها كالبفتة البيضاء، ولكنها حزينة من أجل أخيها. وسحبهن إلى الدار الكبيرة حيث انتشرن بين ردهاتها، وظنت أمي أنها مكيدة دبرتها الضـرة لتغيظهـا. وأقبل بي إليها ليهدئ بالهـا، وقالـت أمـي باكيـة: إنـك لا ترضيهن.. إنما ترضي تلك "العقربة".

فلم يتحمل أبي قولها وصفعها على خدها، وسـقطت مغشيا عليها، وأهملوها حتى كتب المأذون الكتاب، وصـحب العريس عروسه في سيارة أجرة إلى شقتهما الجديـدة تلـك الشقة التي ذهبت إليها صباح اليوم التـالي بصـحبة أمـي، وصعدنا سلما له درابزين من حديد، كان البيت عتيقًا ورطبا ولكن الشقة كانت مدهونة بجير جديد، وضعت أمـي سـلة الكعك والبسكويت، ولم تصافح العريس، واختلت بابنتها فـي حجرة النوم، بينما قعد العريس معي يـداعبني ويقلـب فـي بيجامتي الجديدة، وعلى وجهه ملامح سخرية أبغضها.

تذكرت ذلك، وأدهشني أن أختي لم تزل هنا جالسـة مع أمها التي عادت لغفوتها بعد أن انسللت من بين يـديها، وكنت في نفس هذا اليوم في زيارة لها، وكانت تجلس بـين

حفدتها، وزوجها كان غائبا عند زوجته الأخرى التي تعرف عليها في قطار القاهرة، وعقد عليها خلسة، وفوجئت أختـي بالورقة تأتيها على يد المحضر، وهي في حرب معـه منـذ ذلك اليوم، وكانت تعاني مرض السكر، وانتشرت التجاعيـد على وجهها.. كيف عادت صبية في ريعان الشباب ترتـدي الروب بالورد الكبير وتقعد بوداعة إلى جوار أمهـا وكـأن أمري لا يعنيها في شيء؟

وارتفع فجأة صوت المغني، "الواد أبو عين كحيلـة كان فايت من هنا.. آه.. كان فايت من هنا" ورأيت السماعة معلقة على الجدار، والسلك يمتد حتى يخرج من أعلى الباب ليعبر الشارع الضيق بين الدارين. فالسماعة متصلة بمـذياع يعمل ببطارية، وهم في الدار الكبيرة يتحكمون فيما نسـمعه، ولا إرادة لنا في الاختيار، حريتنا فقط في الفـتح أو الغلـق، وكان هذا بغرض اضطهاد أمي، لأن الضرة هنـاك تفـتح المذياع على ما تريد، وترفع الصوت عند مقطع الأغنية الذي يحمل معاني الكيد، فكانت ترسل الرسائل إلى أمي عبر مادة الإذاعة، وحين يقضي معنا الأب أسبوعه لا ترفـع صـوت المذياع إلا بمقاطع الغناء التي تحمل معنى الهجر والصد.

وسرت إلى عمق الدار، وفتحت باب حجرة الفرن، كانت مظلمة قليلاً يبدو أنها مهجورة من فترة ليست بالبعيدة، هنا كنا نقضي ليالي الشتاء، قبيل المغرب تشعل أمي الفرن، وتسد طاقات الحجرة جميعا بكتل من القش، وتفرش لنا حصيرا على سطح الفرن، وساءلت نفسي: ولكني لم أر أخي الأكبر معهن.. أين يا ترى يقضي سهرته؟ ربما في إحدى هذه المقاهي عند السكة الحديد، ولكن سرعان ما سيعود بعد أن تنقضي السهرة. فاليوم هو الخميس، والتليفزيون يذيع فيلما عربيا جديدا، أذكر أني كنت حريصا على العودة السريعة لألحق به في بيتي، وزوجتي الآن بانتظاري. وكنت وعدتها بأني سأعود بالعشاء، ونشاهد الفيلم معا، ماذا ستقول عن تأخيري، ربما اتصلت بالتليفون لتسأل عني. عند الصديق الذي تعلم أني أقضي ليلي عنده.

في صباح ربيعي، وكانت هذه الحجرة قد هجرت طويلاً، أرادت أمي أن تنظف الفرن، وتسحب كل الرماد المتراكم بالجاروف، وفوجئت بعدد الأرانب التي تتقافز نحوها، وامتلأت الحجرة بالأرانب الصغيرة، وصاحت أمي مهللة: كتر.. كتر.

ونادت على أختي لتغلق باب الدار حتى لا يدخل من يضر بالثروة الغالية. ورأيت أمي بعدها وهي حزينة على هذه الأرانب، واتهمت إحدى الجارات المعروفة بالحسد، واتهمت أختي بالإهمال، فمن المؤكد أن الجارة غافلتها وتسللت إلى هذه الحجرة، ووقعت عليها عينها التي يندب فيها رصاصة، وأدت إلى موت الأرانب عن آخرها، ولم تفلح جهود أمي في الرقيا وفي إطلاق البخور، ولا في ثقب العروس الورقية بعين كل من تظن أنها رأتهم، ورمت " الشبة " في النار بين البخور، وانتظرت، وانتظرنا معها حتى تشكلت " الشبة " بملامح الجارة، كانت كتلة متفحمة لامرأة ترتدي الجلباب الأسود، وتوارى وجهها الضخم بشال القطيفة، ورغم ذلك عرفناها من عجيزتها الكبيرة، وبصقنا عليها جميعا، لأن عينها الحاقدة أرسلت المرض الذي أنحل جلد أرانبنا، ولم يبق منها واحدة.

وأردت أن أعود إلى الشارع مرة أخرى، وحانت مني التفاتة إلى الحجرة الأولى فرأيت أمي وأختي على حالهما من السكون والإنصات للمذياع الذي انخفض صوته حتى صار همسا، لا تلتقطه إلا الأذن المنصتة.

وواجهتني دار "برهم" صاحب الفاخورة، وواجهني مرة أخرى أمين الأعمى الذي يعمل باستغراق في قذف النار بالسرس، والنار لم تزل في مهرجانها الملعلع.

قلت لنفسي: مات أمين من مدة قصيرة.. بعد أن أهلكته الشيخوخة وظلم أخيه له.

كنت متيقنًا من أن "برهم" قد ظلمه، وكتب كل شيء لنفسه، ولم يدع له إلا حجرة قديمة هناك بالقرب من الدولاب الذي يصنع الفخار.

مات أمين، وكان في أيامه الأخيرة يعيش على عطف الناس وإحسانهم، ورأيت أطباق الطبيخ تسعى إليه في ليالي رمضان، كان قبل ذلك قد عجز عن الذهاب إلى المسجد حيث اعتاد الحي صوته يؤذن لصلاة الفجر.

ها هو الولد "دبابة"، يرفع الفخار الني من الدولاب ليضعه على الحصى، دبابة الذي كان يقضي قيلولته تحت ظله دارنا، وكنت أجالسه، ويقص علي حكاية عجيبة، وفي يوم ذهبت إليه في موعد راحته فلم أجده، وعدت إلى أمي لأسألها: لم أجد "دبابة" في مكانه. قالت وهي تربت على صدري مشفقة: "دبابة" لن يعود.

- طرده "برهم" من عمله؟
- أبدا.
- وجد عملاً آخر بعيدا عن الفاخورة؟
- اختاره الله إلى جواره.
- ولماذا هو بالذات؟
- أنت ثرثار.. مات دبابة أمس.
- هل ضربه أحد على رأسه.
- بل غرق في النهر.

وتخلّت أمي عن حذرها، وأخبرتني بأن "دبابة" كـان معتادا على الذهاب إلى النهر بعد نهاية عمله ليشطف جسمه من الطين. وفي هذه المرة ذهب إلى النهر كعادتـه، ولكـن التيار غلبه، وجرفه إلى العمق، ولم يقدر أحد علـى إنقـاذه، وجلبوا الغطاسين من المدينة، وراحوا يبحثون عنه في قـاع النهر، فلم يعثروا له على أثر.

- كيف سيبعثه الله يوم القيامـة وهـم لـم يعثـروا عليه بعد؟
- وجدوا جثته في بلد بعيد.
- سبح كل هذه المسافة وهو ميت؟

- أخذه التيار إلى هذا البلد، ومنعته شبكة القنطـرة من المرور حتى طفا على سطح الماء.

- وأتوا به إلى بلدنا؟

- ودفن في مقابر الصدقة.

ودخلت دار "برهم"، كان على شمالي مربط الحمار، يقف فوق فضلاته التي تفوح بالصالة، التفت الحمار نحوي، وهش بذيله، وأوسع لي الطريق، وطرقت على باب الغرفـة التي ينبعث من خصاصها نور خفيف، ودفعت الباب، لأجـد ابنه ينكفئ على طبلية عليها لمبة جاز، رفع رأسه قليلاً ليرى شبحي في الظلمة البعيدة، كان معظم النور يتشكل دائرة فوق الكتب والكراريس، فالولد ثقب ورقة ووضعها على زجاجـة اللمبة لتجمع له الضوء، وعلى مسافة منه يتمدد أبوه وأمـه وأخوه الصغير، كان أبوه ينام بدون سراويل، وجلبابه ارتفع إلى أعلى صدره بانت آلته راقدة بطولها حيث يقع نظـري، فقام على التو ليسحب جلباب أبيه إلى أسفل، ويداري عورته وقلته له: أبوك دائما ينام بينما رجاله يعملون في الفـاخورة حتى الصباح.

قال بإهمال: هذا عملهم وأبي ينام لأنه يستيقظ وأمي مع الأذان، ليشدوا الحمار في العربة، ويرفعا الفخـار إلـى الأسواق البعيدة.

وتركني الولد إلى كومة القوالح في ركـن الحجـرة وسحب منها علبة صدئة، فتحها وأخرج منها لفافة وقال: كما وعدتك.. انظر.

ورأيت أوراقًا مالية من فئة العشرة جنيهات الكبيـرة الحمراء. وقال: حتى تخبر الأولاد فـي المدرسـة أن أبـي لا يقل غنى عن أبيك.

- ولكنك تبيع لهم الملح في المدرسة.

- هذه تجارة.

وقضيت معه وقتًا طويلاً نحفظ النصوص، ثم تركته قبل أن يذهب أمين الأعمى إلى المسجد ليطلق أذان الفجـر، وأمين إن ترك الفاخورة تنطفئ نارهـا، ويتوقـف العمـل، ويصبح المكان موحشًا، وأنا أريد العودة إلى داري في ونس العمل وونس النار المشتعلة.

وسمعت صياحا في دار الجيران، وزغاريد منطلقـة من نسوة هرعن إلى هذه الدار، وانعطفـت إلـيهن، كانـت

الردهة عامرة بالنسوة المبتهجات، والأولاد الـزائطين فـي حلقة يقف وسطها الولد فرج، وجدته العجوز ترفـع مقطفًـا على رأسها به أرغفة من خبز طري، وترقص بـه وسـط الحلقة والنسوة يصفقن ويطلقن الزغاريد.

وسألت: متى عاد فرج من غيابه؟

وقال أحدهم: عثروا عليه في الإسكندرية البعيدة يبيع الأمشاط للمصطافين، وها هي جدته فرحة بعودته، بعـد أن فارقها نور عينها، فهو حفيدها الوحيد لولدها الذي مات منـذ عامين.

ورقصت مع الراقصين وصفقت مـع المصـفقين، ونظر إلى فرج، وأقبل جهتي وقال: ألا زلت على خصامك؟ قلت: لا.. بل حزنت لهروبك.

وكنا قد تشاجرنا قبل رحيله بأسبوع، لأنـه عيرنـي بورم عيني، وزفني مع الأولاد في الشارع: أبو عين وارمة شخت عليها الحاجة سالمة.

ولهذا السبب عقدنا إصبعينا، وتفل كل منا على إصبع الآخر، ووقع الخصام، وها هو يحادثني الآن بود، ويهمـس في أذني: سأقص عليك كل ما رأيت في رحلتي.

وسألني على حين غفلة: هل ركبت القطار يوما؟

قلت: ركبته حين ذهبت مـع أمـي لزيـارة خـالي السجين.

- ولكنك ركبته من الداخل مع الناس.. أما أنا فقـد اعتليت سطحه، وركبت جراره، ومررت من تحت كبـاري كثيرة.

وسألني مرة أخرى: هل رأيت شاطئ البحر المالح؟

- سأراه حين أزور قريبتي ساكنة الإسكندرية.

- أنت تدعي كل شيء.

- أنا لا أدعي، فأنا ركبت القطار فعلاً... من الداخل مع الناس المحترمين وليس كالفاسدين مـن أمثالـك الـذين يعتلون سطحه.

وصفعني على وجهي بغتة، واشتعلت غضبا، فحجز بيننا الناس.

واندفعت إلى الشارع المظلم، ورأيـت أمـي مقبلـة نحوي ترفع وزة كبيرة بين يديها.

- فرج ضربني يا أمي.

- قلت ألف مرة لا تلعب مع من هم أكبر منك سنًا.

- سآتي معك.
- أنا ذاهبة إلى "أم بلح".. عد إلى الدار.
- سآتي معك.

وسحبتني بيدها الفارغة، وطرقت على باب قديم لدار شباكها يبدأ من أرض الشارع ولا يرتفع عنها قليلاً، وكـان بمقدوري تسلق قضبانه بسـهولة لأرى الحجـرة الأماميـة، وزجرتني أمي.

- تأدب.

ودفعت الباب، ودخلنا ردهة طويلة مظلمـة، تفـوح منها رائحة سباخ، ويتردد بين جنباتها خوار ماشية راقدة في مكان ما، ودخلنا قاعة بآخر الدار، وكانت "أم بلح" متجمعـة على نفسها، فوق فرن منخفض، وألقت عليهـا أمـي تحيـة المساء، وشكت لها حال الوزة، قالت: البيضة محجوزة فيهـا منذ البارحة، حاولت بيدي ولكنها لا تطالها.

وطمأنتها العجوز، ومدت يديها نحوها لتمسك الـوزة من جناحيها، وراحت يدها تتحسس الريش الأبيض، وتـدور على جسم الوزة من الرقبة حتى الخلفية، ورأسها الذي يشيع فيه الشعر الأبيض مال كلية بين ركبتيهـا، وانغمسـت فـي

عملها باستغراق، والعينان اللتان لا تريان شيئًا البتة انحرفتا بعيدا، وتقلبت فيهما مقلتان بيضاويتان ترتجفان بقلق، وتركت أذنها مفتوحة على آخرها نحونا، وأمي قبعت صامتة تمسـك منقار الوزة التي لا تكف عن الزياط، وتابعت يد المرأة التي اندبت أصابعها الملمومة بشدة حتى اختفـت كفهـا جميعـا، وراحت شفتاها المشعرتان ترددان البسملة. وأخيرا سـحبت البيضة المدماة من مؤخرة الـوزة وأعتقتهـا تمـرح فـي "البحاراية" وتنفض ريشها الـذي اهتـز لـه نـور اللمبـة "الصاروخ"، وعدت أنا وأمي إلى دارنا بعد أن مدت يدها إلى المرأة بشيء لم أره.

وهج الفاخورة لم يزل يتراقص على جدارنا، ووجـه أمين الأعمى صار قطعة من الجمر، و"دبابه" الذي يتحـرك جيئة وذهابا يلتهب بالنور مرة، ويخبو حين ينحدر الدولاب، وأمي قالت: هيا ادخل أمامي.

قلت متمردا عليها: أريد أن أعود إلى زوجتي فأنـا تأخرت عليها جدا.

- أي زوجة يا ولد؟

قلت مسترضيا لها: البنت التي اخترتهـا لـي قبـل رحيلك.

ونفضت يدها في الهواء، وتركتني وحيدا، وقالت قبل أن تمرق إلى الرحبة المسورة بجدار واطئ: سأغلق الباب.. اذهب أنت وأخوك لتناما في حضن أبيكما هناك.

وأشارت إلى الدار الكبيرة، وشدت الباب وراءهـا، ورفع أمين يده عن العمل للحظة لينصت للصوت، ثم عـاد إلى حركته الآلية، يدفع رشاش السرس إلى الفوهة، فتصخب موجات النار في الداخل، و"دبابه" وضع آنية طينيـة علـى الحصى بجذر ثم قفل عائدا متلاشيا في الظلام الذي يتكـاثف كلما بعد عن وجه الفاخورة.

وسرت بمحاذاة سور الدار الكبيرة.

التقيت بأخي آيبا من سهرته، كان يردد أغنية تؤنس ليله، ويطرد بها أشباح الطريق.

قلت له: عد كما كنت أمك لن تسمح لك بالدخول.

مد لي يده بحبات من الفول السوداني وسألني: وأنت كيف تشجعت على الخروج؟

- أنا عائد إلى شقتي.

- شقتك!!

وضحك بصوتٍ عالٍ، ثم سعل بشدة، وتفـل علـى السور، ثم سحبني من يدي باستخفاف: تعال.. الله يهديك.

- أنا لا أريد أن أدخل.

- ساعدني على تسلق السطح، واذهب إلـى حـال سبيلك.

وعدت معه متململاً حتى وصلنا إلى البقعة المضيئة بالنار، وانعطفنا إلى الشارع الضيق الذي يفصل دار أمي عن الدار الكبيرة، وطلب أن أشبك له أصابع يدي، ليصعد عليها إلى نافذة الكرار، وثبت قدمه فوقهما، وفي قفزة واحدة، كان يضع القدم الأخرى على حافة النافـذة المفتوحـة، ودخـل برأسه، ثم بدأ يتلوى بجسده كثعبان حتى اختفى تماما، وصاح من الداخل بصوت خفيض: اقذف النعلين إلى السطح.

وعدت أسير بمحاذاة سور الدار الكبيرة، وأنا أتجاهل صوت أخي الذي انطلق في سكون الليل يسـتغيثني، قلـت لنفسي: ما باليد حيلة.

وفكرت أن أدخل الدار الكبيرة لأخبر أبـي، ربمـا يتحرك له قلبه، ويقوم لإنقاذه وسمعت صلصـلة الأجـراس

خلف جدار الظلام، وتخشبت قدماي، ورأيته مقبلاً نحـوي، يسير سادرا لا يعبأ بمرآي، كان هو بقامته القصيرة ورأسـه الكبير، يرتدي "شورت" يصل إلى ركبتيه وتتحلـق سـيقانه أجراس صغيرة تصدر أصواتًا كلما ضرب برجله في أرض الشارع، ويداه كانتا ثابتتين إلى جنبيـه، ويتحـرك مصـدرا وجهه إلى الأمام بثبات، وعيناه الواسعتان تطلقـان الشـرر الذي يضيء له الطريق، القزم الذي حكت لي أمي حكايتـه، أنه يمر كل ليلة في الشارع، وأنها تنتظره وتقبع وراء الباب كلما سمعت الصلصلة مقبلة من بعيد، حاولت محادثته أكثـر من مرة إلا أن يتجاهلها تماما ويسير فـي طريقـه بحـزم وإصرار وقالت: هو أحد أبنـاء الجـن المكلّـف بحراسـة شارعنا.

وطلبت منها أن تحملني مرة لأراه، وأبـت بحسـم، وقالت: إن قلبك الصغير لن يتحمل رؤيته وها هـي الأيـام تدور، وأراه يمر أمامي الآن وتابعته بنـاظري حتـى بـان للحظة في وهج الفاخورة، ثم اختفى، ولم يبـق منـه غيـر صلصلة تتلاشى رويدا رويدا حتى سقطت في الصمت.

واحتك بساقي شيء غامض، حاولت تلمسه غير أنه فر مبتعدا، ولم أر غير بؤرتين براقتين تتحركان بين الظلام، والمواء الذي انطلق فجأة من جهة البؤرتين اللامعتين أكد لي أن كائن الظلام هذا مجرد قط، بدأ هيكله يتضح لأنه استحال إلى اللون الأبيض ولكن هذا اللون راح ينمو. وينمـو حتـى صار بحجم كلب، ولم يتوقف نموه، وإنما الكتلـة البيضـاء تضخمت حتى صارت بحجم حمار، اقترب مني، وهو يـنفخ شدقيه في الأرض، فجزعت، وعدت بظهري إلـى السـور، فاستدار فجأة، وضرب ساقيه في الهواء، وأطلق من جوفـه ريحا قويا، وتأكد لي ما قصته أمي، فهذا هو الحمـار الـذي تلتقي به كلما اضطرتها ظروفها إلـى الـذهاب لـيلاً إلـى الخبازة، وللأسف أنا الآن لا أمتلك مطواة، كنت غرستها في كفله، وقلت له آمرا: عد بي فورا إلى شقتي.. فيأخذني إلـى المكان الذي أريد في غمضة عين.

حاولت تلمس السور لأتمكن من الوصول إلى بابـه، هذا السور يلتف حول الدار الكبيرة المفتوحة على شارعين، غرفها الكثيرة تمتد بين حوشين، واحد منهمـا تتـوزع فـي أنحائه حظائر الدجاج وغرف كبيرة لخزين التبن والحب. أما

الحوش الآخر مجرد مساحة واسـعة تنشـط فـي مواسـم الحصاد، حيث تأتي الجمال بالأحمال ليدور عليها النـورج. وتعمل فيه ماكينة الدراوة في أمسـيات تصـخب بأصـوات الرجال وأنوار الفوانيس. عثرت يدي على الباب الصغير ذي الخشب الرقيق، دفعته وأنا عليم بأنه خالٍ من الغلق ووجدتني أقف بين يدي أبي.

كان يرتدي قميصا أبيض، وكان عـاري الـرأس، بدون عمامة، يمدد جسمه على حصير تنتشر عليـه وسـائد كثيرة، كان يركز بكوعه على واحدة منها، وتحت أقدامه تقعد زوجته، ظهرها إلى الحائط، وممسكة أصابع قدميه تطرقعها.

اقتربت منه علّه يسألني عن سبب قدومي. ولم يحفل بي، فوقفت مدة منتظرا.. ثم تقدمت خطوة أخرى، وقلت: يا أبي.

فرفع رأسه قليلاً، وأشاحت المرأة بوجههـا عنـي، وكفت عن تدليك الأصابع وطرقعت من فمها.

عدت مرة أخرى أقول متلجلجا: يا أبي.

ولأنه لم يجب، بل أوحي إلى أنه منصت لما سأقول، فتشجعت وقلت: إني تركت دارنا للتو وأمي هناك تضرب أخي الكبير وهو يستغيث بك.

وطرقعت المرأة فمها مرة أخرى وسمعتها تهمهم: عيال آخر زمن.

رد أبي بغضب: أتظنني يا جحش تارك هذه الجلسة لأخرج بقميصي لأنجد أخاك. دعها تقصف رقبته.

قلت: لكن يا أبي هي تضربه..

فقاطعني بحسم: وما أخرجك في هذا الليل وأنت تبول على نفسك من ظلام الحجرات؟ قلت له: كنت في سهرة ومررت من الشارع عائدا إلى شقتي فسمعت استغاثة أخي.

واعتدل في جلسته ونظر إلي مستنكرا: عائد إلى ماذا.. ماذا يقول هذا الولد؟

ثم وقف بطوله، ودفعني برفق نحو الباب: عد إلى فراشك واطلب من أمك أن تُحكم عليك الغطاء.

وابتهجت المرأة، وضحكت ببلاهة.

وأشار إليها لترفع الفرش والمساند، ودخلت المرأة وراءه، وهو صاح في قبل أن يلحق بها: لا تقف هكذا عد إلى فراشك.

وأغلق باب "الفارندة" وتركني أقف ما بين جدار الدار وسور الحوش وحيدا بين شجر التوت الساقط على ماء الطلمبة الأسود.

وكان علي أن أدور حول الدار لأجد منفذًا إلى الداخل لأوقظ أحدا من الأولاد الكبار للقدوم معي، ومرقت من نافذة الزريبة، ودخلت من عقب بابها المرتفع إلى الردهة الطويلة.

وفي الحلكة لم أر شيئًا البتة غير نور "سهاري" يضيء أقصى الردهة، هناك إلى جوار المذياع المرفوع على رف خشبي بين الباب الوسطاني، كنت أعلم أني لو سرت مباشرة سأدخل على باحة الفرن، والسلم الذي يرقى إلى "المقاعد"، وإذا انحرفت يسارا بطول متر، سأجد باب غرفة المرأة التي ينام بها أبي الآن، ولمحت بصيصا من الضوء في ثغرة الباب، فدنوت منه، أتحسس طريقي، وكانت الدار ساكنة إلا من نفخ البهائم وصوت اجترارها المتأني، وملت

على الشريط المضيء بين ألواح الباب، ورأيته وهو ينضو قميصه عنه، ويصعد إلى السرير المرتفع، ويسحب الملاءة على نصف الجسد العاري، بينما المرأة وقفت في منتصف الحجرة تحل ضفائرها، وتشد صدرها إلى أسفل مبدية مساحة من نحرها الذي ينعكس عليه الضوء، ثم اختفت من أمامي بحيث لم أعد أرى شيئًا غير جانب من الكنبة وأرضية النافذة المطلة على الحوش الوسيع، واهتز الضوء ثم خفت قليلاً، ومرت بشبحها أمامي متجهة نحو السرير، وأوسع لها مكانًا جهة الحائط، ثم مال عليها، واختفت هي بين ذراعيه، والملاءة بدأت تنسحب عن بدنه قليلاً قليلاً حتى ظهر عريه كله يلمع في النور الشاحب، وجمعت كفي على فمي، وصحت بآخر عزمي: داري راسك يا حمام.

وهرعت نحو باحة الفرن، وأخذت الدرج في خطوات متلاحقة، ووجدتني أقف لاهثًا على السطح انظر إلى أسفل، لأرقب مجيئه، ولكن أحدا لم يرق السلم، فعدت أسير بين صناديق الغلال منكسر الخاطر، وفزعت حشرات تختفي في الحطب، وسمعت تكسر الأعواد الجافة تحت أقدامي،

وجاءني صريخ أمي من جهة "المقعد" الكبير، فاستدرت نحو الصوت.

دفعت باب "المقعد" وهبطت ثلاث درجات، ورأيـت سرير أمي على يميني مفروشًا أمامه حصيرنا القديم، وفـي المساحة الأخرى سريري أنا وأخي، وهنـاك فـي الجانـب المظلم من المكان كانت أختي الكبيرة جالسة علـى طـرف سريرها تنظر إلى أمي التي وقفت على باب صـغير وسـط "المقعد" تهدد شخصا أمامها، وتقدمت إليها، فزجرتني، ولكني تشبثت بمكاني انظر إلى أخي المعلق على جذع النخلة ما بين الباب وحائط حجرة التبن.

ودفعتني أمي صارخة: عد إلى فراشك.

ثم التفتت إلى أخي مهددة: لن تدخل هنـا ليلتـك.. اذهب إلى أبيك ونم في حضنه هناك. وأخي ينتحب ويقـول لها متذللاً: حرمت يا أمي لن أعـود للسـهر بعـد الليلـة. وتجاهلت أمي استغاثته، وأشارت إلى أختي: نادي على أبيك ليتصرف مع هذا الولد.

وردت أختي متبرمة وهي تلتف في غطائها: كيـف أذهب إليه في هذه الساعة. ولم تجد أمـي حيلـة غيـر أن

تستعطفني، وتميل علي بحنو لتقول: اذهب أنت يا صـغير.. قل لأبيك غلبها أبناؤك الكبار.

قلت لها وأنا اتجه نحو الباب: لماذا أنتم في طريقـي دوما... دعوني أعود إلى زوجتي... لقد انقضى الليل وأنـتم لا ترحمون.

واتخذت طريقي إلى السلم، وترددت قهقهات أمي في رحابة "المقعد" الذي أغلقت بابه من خلفي، تأذيت مـن هـذه السخرية غير المتوقعة، وواجهتني أجرام الصناديق في ظلام الليل الحالك، بينما أنا أهبط الدرج إلى الردهة عازما علـى العودة إلى شقتي مهما كلفتني الوسيلة.

وتردد إلى سمعي الهمس داخل الحجرة، فاقتربت إلى شق النور، وحملقت فلم أتبـين غيـر كتلتـين مـن اللحـم متلاصقتين، تبرق عليهما حبات العـرق، فـانتفض قلبـي، واتجهت إلى الباب خارجا إلى الشارع الآخر.

على عتبة الدار المواجهة رأيت جسدا هزيلاً متكورا على نفسه، انتبه الجسد إلي وراح يتنامى، وتنفـك أعضـاؤه المتجمعة، ليبدي ملامح امرأة مشعثة الشعر، ترتدي خرقًـا بالية، انتفض الرأس نحوي، فأردت أن أعود بظهـري إلـى

الداخل، ولكنها صاحت في صـمت الشـارع، تعـال فأنـا بانتظارك يا ابن العاهرة.

ووقفت أرنو إليها حتى بانت تقاطيع الوجه الكهـل، هي زاهية تلك المرأة العانس التي تعيش مع أمها، وكانتا قد نزلتا البلد – منذ عهد بعيد – دون عائل، ابتاعت الأم هـذه الدار، وبدأت تتكسب من ماكينة الخياطـة، تخـيط لـلأولاد ملابس العيدين وتخيط لنسوة الشارع جلابيبهن وقمصـانهن، وعلّمت البنت حرفتها، والغريب أننا لم نـر رجـلاً يـدخل عليهما الدار قط، وكانت زاهية لا تفوت فرصا، بـل كانـت تنصح النسوة، وتلقي عليهن المواعظ، ووجدناها فجأة تهمـل زينتها، هي النظيفة الطاهرة، وتترك الجلباب على بدنها حتى ينتن وتفوح منه رائحة زاعقة، قالت أمي كأنما تحادث نفسها: ما الذي حدث للمسكينة!! كيف انقلب حالها!! ثم رأيناها تهمل غطاء رأسها، وتقعد على عتبة دارها برأس عـارٍ، وكـان الشيب قد انتشر في أغلبه، وضـفائرها صـارت منكمشـة كقرنين كبيرين على صدغيها، ثم خرجـت يومـا محاولـة الضفائر، وانتفشت عكشتها، وبعد أن أهملت غسلها، وانهدل الثوب عن أكتافها، وتمزق عند مواضع الحياء فيها، ثم بدأت

تخرج من الصباح الباكر، وتظل تلعن أشباحا تراها، وتدافع عن عفتها أمامها، وتدعي أن هذه الأشباح قد روجت شائعات كاذبة عن شرفها، وصار اللسان العف لا يتحرج من قـذف السباب لكل عابر.

وركب دماغها أن أمي هي المروجة لشائعة أن رجلاً بعينه يزورها ليلاً، وبالغت في هذا الظن حتى أنها تيقنت أن أمي أجرت لأخي الكبير سيارة بميكروفون تجول في أنحـاء البلد ليشيع خبر عهرها، ثم انحصر كل سبابها حول أسرتنا، فأبي مجرد لص ينهب الناس، وزوجتاه مومستان التقطهمـا من الطريق، وأولاده "ماطشة" لكل من هب ودب من أبنـاء الحي، يختلون بهم في الخربة المجاورة لدارها.

وادعت في نهاية الأمر أن أبي يسلط عليها رجالـه ليقفزوا – ليلاً – من سور الجامع، ويحدثوا جلبة فـي أوانٍ فارغة، لإرهابها حتى تدع الدار وتفر هاربـة، ليخلـوا لـه الأمر، ويضمها إلى داره الصغيرة التي تسكنها أمي.

ولما رأتني في هذه الليلة انفتحت شـهيتها للسـباب، وكأنما صارعت القهر قبل أن تراني، لأن لسانها راقد فـي فمها دون عمل، واستنفرت تماما حتى قامت تـرقص علـى

مساحة العتبة دون أن تتعداها، ولما أردت التسلل خفية إلى الدار قدمت في وثبة واحدة لتمسكني من قفاي: تعال يا ابن العاهرة تركت أمك في حضن من الليلة؟

قلت لها بصوت مخنوق بالبكاء: خرجت استغيث بأبي لينقذ أخي، فأمي تهدده.

قالت وهي تجرجرني نحو دارها، تعال لأريك ما تفعل بأمك.

ودفعتني إلى الداخل، ووقفت لأرى، وأنا فاقد الحيلة، وحاولت أن أتلمس في عينيها علاقتنا الأولى. يوم كانت تقربني إليها دون أولاد الحي، وتسألني عما قرأت في الكُتّاب، وتعيد معي حفظ السور، يوم كانت تدفع لي كتبا صفراء قديمة أتلو عليها منها دون أن أفهم حرفًا مما أقرأ، وهي تمصمص شفاهها، وتهز ظهرها انتشاء، وتردد بعد كل مقطع: الله.. الله.

ودفعتني نحو حجرة مفتوحة على آخرها قائلة: هذا ما فعلته أنا بأمي.. لو أنك رجل من ظهر رجل لفعلت مثلي.

ورأيت لمبة الجاز معلقة بمسمار وتحتها بالضبط وعلى وسادة السرير بقعة من النور محصورة فوق رأس

أمها، كان الوجه مضيئًا بحيث لم أدر أينعكس عليـه ضـوء المصباح أم أن الوجه هو الذي يمنح للمصباح نوره. ودخلت أمامي لتكشف لي الغطاء لأرى الجسـد العجـوز عاريـا، فأخفيت عيني بكفي. واستلقت هـي علـى الأرض مهللـة بجنون: يا جبان.. أنت لم تحتمل هذا لثانية أما أنـا فـأعيش معه العمر كله.

وظلت راكعة على الأرض، ومدت يدها نحو الجسد تتحسسه، وانقلبت سحنتها، وتأهب الوجـه لبكـاء مباغـت، فمالت برأسها على الحافة، وبدأ كتفها يهتـز فـي دفعـات، فتحينت الفرصة وهرعت إلى الخارج، وعند مـروري مـن تحت نافذتها وجدتها واقفة وراء قضبان النافذة، وصـرخت في وجهي: نفدت يا ابن العاهرة.

واتجهت إلى الباب المقابل أهزه فلم ينفـتح. فقلـت ولماذا أعود إلى أبي الآن إنه لاهٍ بامرأته. ينبغـي أن أسـير – كما قررت لنفسي أكثر من مرة – إلى شقتي. ولكن كيف الخروج من هذا الظلام المقيم؟

ولما سرت صاعدا نحو الطريـق الرئيسـي حيـث محطة القطار وطريق السيارات، لأدخل في ونـس النـاس

الساهرين، ورأيت دارنا الصغيرة – التي أقمنا فيها زمنًا بعد أن نقلنا أبي من سكنى المقاعد – تظهر أمامي فجأة، ورأيت أمي تقف على الباب.

وابتسمت لي، وقالت وهي تفتح ذراعيها: ما شاء الله لقد صرت رجلاً وتستطيع السهر حتى ساعة متـأخرة مـن الليل.

قلت لها وأنا رافض لأن تعاملني كصبي: أنا يا أمي قطعت هذه الشوارع سبعا.

قالت بفرح حقيقي وهي تتأملني مـن رأسـي إلـى قدمي: ما شاء الله.. ما شاء الله.. قل الحق لـولا أننـا فـي رمضان وأنت فرح بيقظة الناس ما قدرت على السهر حتـى هذا الوقت.

قلت وأنا أريد أن أؤكد لها رباطة جأش: في رمضان أو غير رمضان الليل لا يعني لي شيئًا بالمرة.

قالت وهي تضمني إليها: إن كنت شجاعا حقا فاذهب لتبحث عن أخيك وأت به قبل السحور.

قلت لها: أنتم تلاحقونني الليلة في كل مكـان، وأنـا أريد العودة إلى امرأتي فرفعتني بين يديها وهي تنظـر فـي

عيني لترى شقاوة الأطفال التي افتعلها: من هذه المرأة التي تتحدث عنها؟ إن أخاك الكبير لا يجرؤ على التحدث مثلـك. قلت وأنا أتملص منها: دعيني أرجوك.. سأرسل لـك ابنـك ولكن لا تنتظريني. وتركتها لأدخل الشارع الجـانبي وهـي تصيح ورائي: يا ولد.. يا ولد لابد وأن تعود، أبوك هنا الليلة وسيسأل عنك.

وتذكرت تلك الخربة التي أجزع من ساكنيها، فما أن ينتهي جدار دارنا حتى أسرع بآخر العزم إلى شارع السوق الكبير حيث نور الفوانيس المضيئة في دكـاكين البرادعـي وصانع الحصر والمكوجية والحلاقين والخياطين السـاهرين ليالي رمضان حتى يمر المسـحراتي، فيغلقـون دكـاكينهم، ويعودون إلى دورهم، فيسقط الشارع في ظلام مؤقت يمزقه نور الفجر الوشيك.

وقبل أن أصل إلى نهاية الجدار رأيته يخـرج مـن الخربة مقبلاً نحوي بسيره الحازم تسبقه صلصـلة الأجـراء المحيطة بساقيه، والسراويل القصيرة تخفق علـى السـاقين، والرأس مندفع إلى الأمام، يطلـق الشـرر الـذي يضـيء. واهتزت عيني من وميضه، وأوسعت له، فركنـت بظهـري

على الجدار، واقترب مني جدا، وتماسكت لأني أعرف أنـه لا يؤذي أحدا، يتخذ طريقـه بتصـميم لا ينحـرف يميناً ـا أو يسارا، يسير دائما في منتصف الطريق، وحين حـاذاني، اتجه برأسه فجأة وابتسم ابتسامة منكرة، أظهرت فما أهـتم، تندفع منه ألسنة النار، تشتعل فوقه رأسه مدومة، ثم تنطفـئ في الحال، صرخت بأعلى صوتي، وظل في طريقه دون أن يلتفت وراءه، ورأيت الرجال يجتمعون على أول الشـارع، ينصتون للصراخ، فقلت لهم: ابعدوا عني هذا العفريت.

وتقدم أحدهم فأخذني من ذراعي وهو يسـألني: أي عفريت؟

قلت: ألم تره!! ذلك القزم.. لقد عبر من أمامي للتو.

وضحك الرجال والصبيان الـذين يعملـون معهـم، وقالوا: وكيف تركوك تخرج وحيدا في هذا الليل.

وسقوني شربة ماء باردة، ومن اضـطرابي انـدلق الماء على صدري، وقلت: إنني أبحث عن أخي الكبير.

قالوا: إنه يجلس هناك مع صبي الخياط.

وقال أحدهم: صوت الماكينة لم ينبهه لصراخك.

عادوا إلى دكاكينهم المواربة الأبواب، وتقدمت نحـو دكان الخياط.

كان أخي يجلس على كرسي منخفض يتابع صديقًا له يمرر القماش تحت إبرة الماكينة، ويتناقلا حـوارا هامسـا، لا يريدا أن يصل إلى أذن الأسطى الذي يتربع خلف المنضدة يقيس القماش المفرود أمامه بمتر الخشب.

ولمحني أخي فأقبل نحوي مبتسما، وقال: تعال.

قلت له: أمي تنتظرك على الباب.

قال: دعك منها.. اجلس معنـا حتـى نـذهب إلـى التوشيح في المسجد.

وسألني وهو مغمور بالبهجة: هـل سـبق لـك أن صعدت إلى المئذنة ليلاً؟

قلت: ولا نهارا.

وشدني إلى جواره، وابتسم لي صديقه وهـو يتـابع عمله.

سيصير صبي الخياط هذا صاحبا لي، وسأتردد على دكانه فيما بعد، حيث أجلس إلى جانبه، ينشغل هو بعمله على الماكينة، وأميل أنا برأسي نحوه، لنتحادث خلسـة، ويتابعنـا

الأسطى الجالس وراء المنضدة بوجهه الأحمر، ويبتسم مـن حين لآخر، ويقول: اسمعاني ما تهمسان به ربمـا افـدتكما بنصائحي.

ويقول صبي الخياط: الأسطى عقر ولا تفوته فائته.

وأقص عليه ما حدث في يومي، عن عـودتي مـن مدرستي حيث أتناول غدائي، وأصلي الظهر، وأنام قيلولتي، وعن الأحلام التي أراها، وهذه النسوة الرائعـات كـالحور العين، يتبدين أمامي بمشاهد مغوية، يسرن بين أشجار الورد عاريات وعن هذه التي تشير إلى من بعيد، ولأني لا أستجيب مخافة الله، تقبل نحوي كاشـفة عـن صـدرها المرمـري، وتسكرني بقبلة انتشي لها وأنا أتلوى في فراشي. وحدثته عن هذه اللذة التي أدمنتها في قيلولتي، تأتي معي حين أسـتدعي بعين الخيال إحدى الجارات، وأبتدع في الكشف عن محـارم جسدها.

وسألني: وتصلي بعد هذا؟

- أنا لا أفوت فرضا.

واستلقى بعيدا عن رأس الماكينة وراح يكركع حتـى لفت انتباه الأسطى، وسألني مندهشًا: تقول إنك تصلي بعدها!

- طبعا.. فأنا أستيقظ صفار الشمس وأخشى أن يفوتني العصر.

وهمس في أذني بما لم أكن أعرفه..

وفيما بعد كلمته عن البنت التي تسكن الدار على ناصية الشارع، كيف أقف لها على بابنا حين تمر، فيخفق لها قلبي، وقلت له إنه كثيرا ما يحدث ذلك، وأتساءل لماذا هذه البنت بالذات. ولماذا يبتسم لي وجهها وهي عابرة، وتلقي النظرة الحيية، ولا أطيق المكوث، فأختفي وراء الضلفة، وأتابعها خفية، وبودي لو لاحقتها وسرت معها في الطريق، وأنتظر عودتها، ليتكرر خجلي، ويتكرر ابتسامها الجميل.

وفي كل مرة ينصحني صبي الخياط بأن أتقدم إليها وأحادثها، فلا أستطيع.

وحين أملى على رسائله لمحبوبته، فعلت فعله، وكتبت رسالة قصيرة ألقيتها في طريقها أثناء مرورها، ومالت عليها واختطفتها على عجل، ودستها في صدرها، وفي أيام لاحقة صحبني معه حيث يلتقي بمحبوبته ليلاً في مكان مهجور، وتجرأت فطلبت من البنت اللقاء، وجاءت متشجعة، ووقفت معها، لا أنبث بحرف، وهي لم تكف عن

الابتسام، وشكوت له خيبتي، وقال: تشجع وقبلها من شفتيها. فقلت: هذا ما لا تطيقه نفسي. وقال: انتظـر حتـى نغلـق الدكان، واحضر معي لقائي لأريك ما تفعل.

وذهبت معه حيث التقى بمحبوبته، ووقفت من بعيـد أراقبه وهو يضمها إليه، وهي خاضـعة مستسـلمة، تبادلـه القبل، وتجرأت فطلبت اللقاء.

وبينما نحن واقفين في مكاننا المعهود، ملـت فجـأة على صدغها ولثمته فارتعشت، وأسقطت يديها إلى جنبهـا، وازداد سواد عينيها بريقًا، وأمسكت باليـدين المستسـلمتين، وضربني قلبي بشدة، فتقدمت خطوة حتى لامسـت الصـدر الناهد، ونام رأسها على كتفي، ورحت أتسـمع لانتفاضـات البدن الحبيب، ورفعت رأسها، وكانـت عيناهـا مسـبلتين، وتناولت الشفتين الخفاقتين، وسكرت من القبلة الطويلة.

حين قصصت عليه ما حدث قال: الآن أنـت رجـل حقيقي.

وقال: ربما تصير لك زوجة. قلـت: لا أفكـر فـي ذلك الآن.

وأكد أنه لن يدع محبوبته تفلت من يده، لابد ستكون أما لأبنائه المنتظرين، ولن ينتظـر ليوافـق عليـه أهلهـا أو يرفضوه.

وفي الأيام اللاحقة صار أسـطى كامـل الأهليـة، بمقدوره القيام بأعباء محل وحده، وساعده معلمه، أجـر لـه الدكان المقابل، ومده بالعدة اللازمة، وحين تقدم للبنت رفضه أهلها، فجمعت هدومها في صرة، ورحلت إليـه فـي داره، وعقد عليها بشهادة معلمه وبعض أهل الشارع من الصنيعية والحرفيين.

وسمعنا صوت الطبلة الكبيرة يتردد من بعيد، فتـرك صبي الخياط ما بيده، خرجت مع أخي نترقبه علـى بـاب الدكان، فرأينا الصبيان قد تركوا أعمالهم، وتجمعوا بانتظـار "أبو رأس" الطبال، كان يتدحرج هابطًا إلى الشارع، الطبلـة على كرشه تصل إلى حد ذقنه، وهو يضـرب بيديـه مـن الجهتين، والصوت تهتز له البيوت الساكنة، واشتعل الرقص في حلقة أغلقت على "أبو راس" الذي هجر إيقاع السـحور، واشتغل على نقرة ونصف، واشتبكت أيادي الصبيان، وداروا حوله، وحل أحدهم شال عمامته، فبانت قرعته لامعة علـى

نور كلوب الخياط. والتف الشال على خصر أحدهم، وانعقـد كحزام. و"أبو راس" رفع يدا ليداري رأسه العـاري، ووقـع باليد الأخرى على جهة واحدة، ثم ترك الطبلة لواحـد مـن الصبية، واقتعد هو الطوار المرتفع، وأخرج من عبه علبـة السجائر وأشعل واحدة، وخرج من الشوارع الفرعيـة أولاد صغار وبنات صغيرات صحبتهم أمهاتهم اللائي وقفن بعيـدا في ظلام الجدار يرقبن من بعيد، وامتدت أياديهن ليسـقطن أغطية الرأس على الوجوه المبتهجة، فـلا تـرقبهن العـين الغريبة، وظلت البنات متشبثات بهـدوم الأمهـات، والأولاد انطلقوا إلى الحلقة. واهتزت أجسامهم الصغيرة على الإيقاع، وتحرك تراب الشارع، وانعكس عليه شريط النور، وتقلبـت ذراته في اضطراب، تبين في الشريط، وتختفي في الظـلام، وأنهى "أبو راس" سيجارته، فطلب الطبلة. وقال لـه الأولاد: دعنا نرقص قليلاً..

ولكنه أبى وقال بحسم: ورائي شغل كثير.. والفجـر اقترب.

فخلع الولد حزام الطبلة عن عنقه، وأعادها الرجـل إلى كرشه، ولما تذكر عري رأسه، طالبهم بالشال فحله الولد

عن خصره، ولفه على رأس الرجل الذي عاود ضبط إيقاعه على لحن السحور، وانطلق من بقعة النور إلى ظلام الشارع جهة جامع الحي، وانفضت الحلقة، وعاد الأولاد إلى أمهاتهم، وعاد الصبيان إلى دكاكينهم، وهدأ الشارع من جديد، وكـان صوت الطبلة يسمع من وقت لآخر عبر المسافات البعيدة.

وأنهى صبي الخياط ما بيده، وقـال للأسـطى: أنـا ذاهب إلى الجامع. وسأله الأسطى: هل أنهيت ما بيدك؟

قال: لا ورائي ولا قدامي.

وسار ثلاثتنا إلى الجامع، ثم لحق بنا بعض الصبيان في الموعد المحدد. كان الباب الكبير مغلقًا، أمام باب الميضة فكان مفتوحا على آخره فدخلنا منه.

وكانت المصلى الصغيرة الملحقة بالميضة مضـاءة بفانوس يتدلى سلكه من السقف، وكان النعش مركونًا علـى جنب. وماء صنابير المـراحيض يسـاقط قطـرات علـى الأرضية كذا صنابير الميضة.

فأمسكت بجلباب أخي، وعبرنا السور الصغير، وتقدم صبي الخياط إلى الباب الملحق بصحن الجـامع، ونظراتـي لا تفارق جرم النعش الواقف على ناحية كجمل يجتر.

ودخلنا ظلام الصحن في صف نمسك أذيال الجلاليب، وسمعت أحدهم يقول: هنا تبدأ الدرجات.. ارفعوا أرجلكم بحذر فالمئذنة ضيقة والسلم دائري.

وتقدمت مبهورا وأنا ألتصق بأخي الذي لم أسمع له صوتًا، وتتالت علينا درجات كثيرة حتى اخترقنا سقف السماء، ثم بدا ضوء خفيف من فرجة صغيرة، وسمعت صوت صبي الخياط: وصلنا.

وتوزعنا في دائرة المئذنة الضيقة، وقال واحد من الصبيان: انتظروا حتى نلتقط أنفاسنا.

وراحت عيني تتابع دور الحي، ورأيت نار الفاخورة متقدة عن بعد، وقلت لأخي: فاخورة "برهم" لم تزل مشتعلة.

وسألني: هل تقدر أن تحدد دارنا من هنا؟

ودرت بعيني في المكان، النار تحدد الفاخورة، إذن هذا هو الشارع، وهذا هو سور الدار الكبيرة، ورأيت الحوشين معا، وعرفت أن كتلة الظلام الكثيفة هناك هي أشجار التوت في الفراندة، وهذه هي دار زاهية في الشارع الجانبي، وإلى جوارها دارنا الصغيرة، من زجاجها ينبعث

ضوء لمبة الجاز، وأشرت بإصبعي في لهفة: هـا هـي ذي هناك.. أأنادي على أمي؟

قال: لا.. ستتعرف على أصواتنا.

- ولكنها لا تعرف أنني معكم الليلة.

- دعك من أمور العيال.

وأمر صبي الخياط بـأن نتهيـأ للتوشـيح، وكنـت لا أحفظ بعد، وقلت: في نفسي سأنتظر حتى أتعلم من الكبار ثم أضم صوتي إلى صوتهم، وانطلقوا معـا: لا أوحـش الله منك يا شهر الصيام.

ورأيت وهج الفاخورة يخبو قليلاً قليلاً، وتعرفت على شبح أمين الأعمى يترك مكانه وسمعت صوته يحادث دبابه، وقلت: فلأتابع ذلك القزم ربما رأيتـه يسـعى هنـاك بـين الشوارع، ورأيت شرارا صغيرا يندفع من بؤرتين ثم ينتشر حول جسد لا يكف عن النمو والانكماش، وحين تعود نظري على الظلام اتضحت البيوت وبانت حدودها، ورأيت زاهيـة تقف وسط الشارع، تشير إلينا تصرخ بكلمـات لا نسـمعها بوضوح، وبعد فترة تجاهلت وجودنا، وبدأت تحاول ضـبط رقصاتها على نغم أصواتنا وأضيئت نوافذ الـدور بتتـابع،

وانبثقت نافذة محبوبتي كنوارة تتفتح وشعرت بأن أهل الحي يقومون من رقاد عميق، والأصوات بدأت تُسمع من هنا وهناك، وسمعت بكاء الأطفال، وصوت الأمهات يحاولن إسكاتهم وسمعت صوت كبس وابورات الجاز وأطعمة تطش في زيت مقدوح وتكسير الخبز وأفواه تلوك الطعام ورشفات الشفاه تحتسي مشروبا سخنًا وخوار دواب وثغاء أغنام وجعجعة جمال ونهيق حمير وشقشقة طيور كانت نائمة على الشجر القريب. ورأيت الأفق الشرقي يشتعل بالنار ورأيت كأنما أمين الأعمى فوق المئذنة يردد: سبحان من تسمى قبل أن يتسمى.. سبحان من كان عرشه على الماء.

ورأيت دخان الفاخورة مكبوتًا بداخلها والفخّار يتقد حمرة.. كانت مطفأة. وكان الفخّار الذي مصفوفًا على الحصى ينتظر دوره في الحريق، وكان الدولاب تحت عشة الخوص عليه بقايا طين جاف وماء الحوض بجواره غامض وترسب في الطمي الذي أُذيب من يد العاملين بعد توقف العمل وتأكدت بأنهم هناك بصحن الجامع منتظرين أن ينهي أمين أذانه ليصطفوا خلف الإمام ليقضوا صلاة الفجر، وأنا في مكاني أقف بين دور حجرية بزغت فجأة مع أعمدة

الكهرباء ورأيت العمارة العالية محل دارنا الصغيرة والـدار الكبيرة التي قُسمت بين الأبناء يرتفع على أرضها عمـارات الغرباء الذين اشتروا من الورثة أنصـبتهم. وعلـى امتـداد الصف الذي تشغله الفاخورة بيوت كثيـرة مـؤجرة لأنـاس هبطوا البلد في الزمن الأخير، تبرز على شـرفات البيـوت لافتات لأطباء ومحامين وبيوت خبرة هندسية وسمعت دبيب أقدامي على أسفلت الشارع متجها إلى بيتي، وكانت سـيقاني لا تسعفاني من كثرة الوقوف، وضربت قدمي فـي الأرض لأنشط دماءها المتكاسلة، وتحركت ببطء صاعدا إلى شـارع المحطة ورأيت البوابة الحديدية نائمة لتحجز الطريق لقطـار الخامسة المقبل من جهة العاصمة، كان باعة الفاكهة يطفئون أنوار مصابيحهم، ويفتحون الإذاعات على قـرآن الصـبح، وبائع الجرائد وقف أمام عربة التوزيـع يسـتلم الصـحف والمجلات والزبائن العائدون من صلاة الفجر يقفون بانتظار الحصول على الصحيفة الأولى، وأصوات الوابورات تضـج تحت صواني الزيت المغلي، وصبية موقف السيارات يقفون تحت المظلة يدلقون الماء من الـدلاء ويـدعكون سـطوح

العربات بالفوط الصفراء، والمنادي اتخذ لـه مكانًـا علـى مفترق الطرق. ورفع عقيرته بصوت رخو: مصر.. مصر.

ومررت من بين الجميع متشبعا ببهجة النور، ولمـا قامت البوابة الحديدة، قطعت القضبان بالعرض لأهبط إلـى الشارع الذي يصلني بالحي الآخر.

مدينة صغيرة تحت الأرض

رأيتني مع صديقي، نصعد طرقًا ملتوية في مدينة من القمائن المطفأة والمفتوحة أفواهها على جدران أكلتها النيران، وتبدو من بعيد كأنها محماة، رغم إحساسي بفراغها، ورأيتني أجلس معه على مصطبة طينية تظللها عيدان من القصب والخوص، وتحملها أعمدة من الخيزران، وكنت أرى على بعد شبح مدينة كبيرة تشملها سحائب من الغبار مما يجعلها متلاشية كأنها خط الأفق في لوحة من الفن الحديث، وكنت أكاد أسمع لها ضجيجا مكبوتًا كدفعات وابور طحين يعلن عن نفسه ولكنه لا يبين، وكانت تلمع على زجاج عمائرها المرتفعة ومضات شمس كالحة، لا تظهر في السماء أمامي، ولكنها في مكان ما خفي.

قال صديقي: ها أنت تراني لا أميل للمرور من بين هذه المقابر منذ دفن فيها ولدي الوحيد.

وكنت أستشعر ذلك بيني وبين نفسي، ولا أرى داعيا لتكرار الجملة التي أعرفها جيدا، لأني سمعتها أكثر من مرة، ولكنه لا يمل تكرارها.

وكنت أضمر محاولة المرور بين المقابر التي يخشاها، على أن يكون بصحبتي، لأؤكد له أن إحساسه به مجرد وهم، وبالعادة يستطيع النسيان.

وخرج لنا رجل من ظلام الباب، ومال برأسه إلى الأرض بخضوع ، قلنا له: نريد أن نشرب الحلبة الحصى.

أشار بإصبعه الكبير على عينيه، ومال برأسه مرة أخرى، وعاد بظهره، ثم هيئ لي أنه حملق في بشدة، وأنني استشعرت العداء في عينيه الجاحظتين، وقبل أن أخبط صديقي في جنبه لينتبه إلى سحنة الرجل المفاجئة رأيته كأنما استحال إلى هيكل من خشب قديم، تهدلت عنه ثيابه المرقعة، وبدا السوس متهالكًا على أنحاء وجهه، وظل واقفًا بجمود، وظلت بسمته الشريرة على ثباتها ورأيت صديقي يقوم إليه ليعيد تذكيره بطلباتنا، ولكنه لم يتحرك، فما إن لمسه بإصبعه حتى سقط، فخرجت علينا رءوس كثيرة من ظلمة الخص الرطب، على نفس شاكلة الرجل، وبذات الملامح، فتركنا المكان، ونحن نقذفهم بالطوب، والأفواه المتسعة تتحرك بنشاط، دون أن نسمع منها كلاما، ولكنني كنت أعرف أنها تسبنا.

ورأيتني أنزل مع صديقي التل المرتفع ثم نصعد بين القمائن التي تبدو مهجورة منذ عهد بعيد، والفخار كان مصفوفًا خارج جدرانها، تتسلقه حشرات بدائية ضخمة الأجرام تنظر إلينا كلما دنونا بشراسة وعداء مستحكم.

ولمحنا هذا الثوب الأزرق يضم بدنًا لينًا يمشي بتؤدة ودلال، وكان ينسدل على الثوب من الخلف غطاء رأس أسود، كنا نشعر أن صاحبة الثوب تحس بوجودنا، وسرنا وراءها بحذر، وفجأة التفتت المرأة إلى الخلف بابتسامة ودود فيها دعوة وترحيب، واقتربت منها وأخرجت من جوفي صوتًا كأنه السؤال عن كيفية الخروج من متاهة هذه البقعة، وأشارت بيد بيضاء ممتلئة توسوس فيها أساور ذهبية على هيئة ثعابين، ولكننا في الحقيقة كنا نريد الخروج من هذه اللحظة بالذات، بل أقول إنني تمنيت لو اختفى صديقي بطريقة ما لأختلي بالمرأة، وهي كما أحس من دلعها وليونة حركتها أنها امرأة سهلة، وما ظهرت في هذه البقعة المهجورة إلا لهذا الغرض، ونظر إلي صديقي فرأيت الشهوة تطفر من عينيه، وإن حاول ضبطها بملاطفة مبالغ فيها

ورأيتني أغار منه، خاصة بعد أن تشجع فأمسك بيدها، وأدارها إلى الجهة الأخرى، ليدخل بها فوهة إحدى القمائن.

وكنت كأنني اختفيت لسبب ما، ثم ظهرت مرة أخرى وأنا أطل عن عين القمينة لأجد صديقي ينام على صدر المرأة. ويسح الدمع السخين، وينتفض بدنه كله وهو يقول لها: لم أقدر أن أدفنه بيدي هاتين، لقد جبنت وتركت الناس الأغراب يقومون بذلك، بينما اكتفيت بالمكوث في غرفتي، لأضرب رأسي بالحائط، وأبكي.

وكانت المرأة تداعب شعره بحنان، والتفتت إلي، فرفعت رأسه بعيدا عنها، ونبهته لوجودي، وقامت تواري عريها، وتعود إلى ارتداء ثوبها الذي اتسخ بتراب الحريق.

وعادت لتهدهده من جديد وتقول: تعال معي.. فهناك أعلى هذا التل زوجي، وسأقص عليه قصتك، ربما يجد حلاً، ولا أجزم لك بأنه سيعيده إليك في وقت قريب، حقًا هو يصنع الفخار طول اليوم، ولكن ما باليد حيلة، وسأوصي عليك عنده.

وسحبته من يده، وسرت أنا وراءهما ألوك غربة مفاجئة، ولكن دون حقد، ولا غيرة، بمشاعر محايدة تمامًا،

لا عطفًا لمشكلة الصديق التي صرت أراها خرافة، وحكايـة ممطوطة يبتز بها الناس، ويبرز بها عجزه، ودخلنا (عشـة) حوائطها من أوانٍ فخارية قديمة ملصقة بقطع مـن الطـين، وسقفها الساقط شواشيه إلى أسفل، يدفق نورا لشـمس قويـة طلت مرة أخرى وكأن الزمان يعود من غروب إلى شروق، فالشمس تركت أفقها الباهت، وكانت على وشـك السـقوط وعلى غير العادة آثرت البقاء حتى ينهي صديقي موضوعه، ونظرت – الشمس – بتطفل شديد من طاقة السـقف ترقبـه واقفًا أمام الرجل الذي يبدو كأنه لم ينتبه لقدومنا بعد، فقد كان مستغرقًا مع كتلة الطين الاسطوانية التي تدور أمامـه فـوق دولاب الفخار.

ورفعت المرأة رأس زوجها. وأفاق من غفوته، ولكن بيني وبين نفسي شعرت بأن الرجل كان ميتًا إلى أن دخلنـا فبعث من جديد، وبدأ الدولاب يدور، وتستيقظ كتلة الطين بين يديه، وتغرد راقصة بين أصابعه التي دبـت فيهـا الحيـاة، وتتأود قطعة الطين وتتشكل فـي تأودهـا قلـة أو إبريقًـا أو زهرية.

ومالت المرأة على أذن الرجل الذي استحال إلى كهل، وتدلت من أصداغه لحية شهباء التصقت شعيراتها بالطينة الدائرة، وهز رأسه مرتين أو ثلاث، ورفع إحدى يديه ليرش الماء على قطعة الطين قبل أن تجف، ولمسها بإصبعه، فراحت تتشكل على هيئة وجه لطفل رضيع يبتسم، وانكفأ عليها صديقي صارخًا: هو.. هو.. إنني أريده.

ولكن حركة الرجل توقفت، كذلك الدولاب، وكتلة الطين صارت حجرا خشنًا، وظلت اليد اليمنى للرجل مرفوعة إلى أعلى، وسبابته جمدت مشيرة إلى شيء ما.

ورأيتني أبحث مع صديقي عن المرأة التي صحبتنا إلى المكان فلم نعثر لها على أثر، واستحالت أواني الفخار المصفوفة بالعشة التي انسحبت عنها الشمس إلى رءوس مبتورة تقهقه بسخرية، فهرعنا إلى الخارج.

ولمحنا طيف المرأة يمشي الهوينى بين القمائن، ويتلاشى، ويتلاشى صاعدا في غبار الأفق الذي وقفت على حده – وراء عمائر المدينة – نصف شمس صفراء مترددة في الذهاب.

ورأيتني أهبط معه تلال القمائن لنصل إلـى سـفح ممتد، ونسير بين أطلال لجدران مهدمة، أحجارهـا قديمـة راشحة، ولا تبين شيئًا من قسمات البيوت التي كانتها.

(وأشار هو بيده في الاتجاه كأنه يعرف المدينة كأحد سكانها القدامى. وأشار إلى حفرة، وقال: هذا أحد آبارنا كنـا نروي بمائه ظمأ إبلنا، وكما ترى لم نكن أبناء حضارة بناء، فقد جئنا إليكم من بيئة لا تعرف غير الخيام التي نرفعها من وبر الإبل وجلود الخراف، وبرغم قربنا من شواطئ النيـل إلا أننا كنا نخشاه، وأمرنا أميرنا بألا ندنو منـه، ولا نجتـاز ماءه إلى شواطئ نجهلها، ففضل حفر الآبار كما نفعـل فـي صحرائنا.

وانحنى على قطع من الشقافة ملونة، وقال: هذا هـو حطام آنيتنا، كنا قد جئنا في جيشنا جنودا من غير نساء فكنا نحن الرجال نرفع الأواني إلى الآبار، فتراها تحطمـت منـا جميعا، لأننا لا نحسن مثل هذه الأعمال، حتى دالت لنا كـل البلاد من شمالها إلى جنوبها، وتفرقت قبائلنا في كل جهـة، وجئنا بنسائنا، وتعودنا سكنى المدن والأرياف، وودعنا حياة الصحراء إلى غير رجعة.

وهجرنا مدينتنا هذه، وأقمنا بدلاً منها عاصمة جديدة، أقمنا قصورها وقطائعها من أحجار صخرية تصمد للأيـام، وهناك وراء هذه العمائر ترى مآذن مساجدنا القديمة، وترى الدور الأخرى التي حفظها لنا الزمن بينما تدهور حال هـذه المدينة، ودمرتها حرائق النزاعات، ولم يبق منها غيـر مـا ترى عيناك).

ورأيتني أهبط معه سلما له درابزين حديدي أعلـى الشارع الذي يضج بالسيارات والقطارات وزحـام النـاس، حينما وصلنا نهاية السلم لم نعد نسمع شيئًا البتة.

ورأيتني معه وسط مدينة عتيقة، لهـا مبـانٍ علـى الطراز القديم، شوارعها ضـيقة مخنوقـة، تمتـد شـرفات منازلها، فتظل مساحة الشارع كلها، وتشتبك مـع الشـرفات المقابلة، والشوارع مبلطة بقطع من البازلت الأسود، وتقعـد بنات فائرات بأثداء مترعة على عتبات دورها الصغيرة التي تبدو كأنها ديكور لمسرح يعرض نصا من عصور سـحيقة، وكنا نلمح في آخر الزقاق عباءات لقساوسة يمشون لا يلوون على شيء، وكانت البنات ينظرن إلينا برغبة مكبوتة كـأنهن لم يرين رجالاً من أهل الدنيا العلوية قط، وكنا نحـس أننـا

سننجر إلى داخل إحدى هذه الغرف التي تطل منهـا أعمـدة أسرة لها دوائر من الدانتلا، ونغتصب اغتصابا، فـالنظرات الشرهة للبنات لم تدع مجالاً للشك في ذلك، فالعيون متنمـرة ومشتعلة بشهوات مجنونة، والأيادي كأنها مخالب لحيوانـات وحشية لا رادع لها.

لذنا إلى الجدران نبحث عن أقرب مخرج، وأسرعنا قليلاً نستصرخ هذه العباءات السوداء التـي تسـير أمامنـا، ولا نهتم بوجودنا، وكنا نسمع دبيب الأقدام يعلـو ويرتفـع، وتزداد هرولتنا، فيزداد اللهاث، ويرتفع الذعر إلـى حلوقنـا حتى كاد الصريخ ينفجر من شرايينا، واختفـت العبـاءات السوداء كأن لم يكن لها وجود من قبـل، واختفـى الـدبيب واللهاث، لأننا اقتربنا من ساحة ينفتح عليهـا بـاب ضـخم لكنيسة صغيرة، كانت إحدى ضاف الباب محروقة من جنب، وعبرنا الحاجز الخشبي لندوس على فرش من فـرو الغـنم والماعز، وتضوع في المكان فوح عطر لا أشـمه إلا فـي الجنازات.

وخرجت علينا عجوز من ركن ما، واقتربـت منـا، كانت سحنة وجهها الهادئ مطمئنة، ومالت علينـا بتواضـع

محبب، وباركتنا بمسح كفيها على كاهلينا، واستدارت تبحث عن نعلينا، فأشرنا إليها أن اطمئني لقد خلعنا النعال خـارج المكان الطاهر.

وأشارت إلينا لتقول: إنه مـن الأفضـل أن ترفعـا نعالكما معكما لأن المكان غير مأمون.

ودخلنا صحن المكان الواسع، كانت تنتصـب علـى أركانه تماثيل المسيح والعذراء، وانعطفنا لندخل الحجرة التي يقف فيها المسيح مضيئًا من جوانبه، وشعرنا برهبة المكان، ولكن حاولت تفادي نظرته إلي.

هل كانت وعيدا؟ لا أدري. ولكني أحسسـت أننـي حين أتفاداها فلا خوف من شيء، ودرنا بالمكـان دورتـين لا ندري ما نفعل به.

وعادت العجوز لتطل برأسها من البـاب، وتقـول: لا تحتارا إذا كان لديكما نذر أسقطاه في هـذا الصـندوق.. والمسيح معكما.

ودفعت يدي في جيبي فلم تعثر على شـيء، كـذلك فعل صديقي، ونظر كل منا إلى الآخر برعـب، وشـعرت

للحظة بأن نحنحة خرجت من حلق التمثال الذي مال بظهره قليلاً نحونا.

وفي حيرتنا تضاربت وجوهنا، ورحنا نلف المكـان دائخين، حتى رأينا العجوز تدخل علينا وهي تسير على يديها وقدميها، وراحت تخمش في سراويلنا، واستحال صوتها إلى مواء، والتصقت بنا في عناد، وبدأ ظهرها يتقوس إلى أعلى، واندفعنا إلى الباب يمسك أحدنا بيد الآخـر حتـى وصـلنا البراح، بعد أن ودعنا الدور الصغيرة والكنائس وراء ظهرينا لنستقبل شواهد القبور، كانت شواهد نظيفة مبنية بطوب أحمر صغير، وتسقط عليها أشجار مزدهرة بالخضـرة الناصـعة وينهال منها ثمار جهنمي أحمر خفيف، فينبت على ظهـور الشواهد ورءوسها.

ورأتني أمشي معه بين هذه الصفوف نطالع أسـماء الموتى الذين يرقدون وراء أبواب من الصاج مغلقة بقضبان حديدية صدئة عليها أقفال كبيرة سوداء معقود عليها قطع من القماش الملون.

وكنا نرى بعض الشواهد فارغة وأجوافها نظيفة غير مسكونة، ولكنا شعرنا ببهجة الخضرة ودسامة الظل وصـفو

الجو والروائح العطرة التي تنبعث من مصادر مجهولة، ونسمة لعوب راحت تتلاعب بأوراق جافة، وتصنع زوبعة صغيرة تدوم حول قدمينا، وترفع الأوراق إلى ما تحت سراويلنا.

ورأيتني أطالع صور الموتى المعلقة فوق واجهة الشواهد، وكنت فيما بيني وبين نفسي أدهش لهذه العادة، وأقول إنني لم أر ذلك من قبل، كيف يتسنى للمرء استيعاب هذا الأمر: أن يرى صورة لميت، لا يحجزه عن رؤيته سوى صفيحة رقيقة فيراه على حقيقته عظاما نخرة وجماجم مفرغة من حواسها.

وقال صديقي وهو يشير إلى إحدى الصور: كم هي جميلة وبيضة.. كان بإمكاننا قضاء ليلة جميلة معها.. لولا أنها اختفت.

وقربت بصري من الصورة فرأيت تلك المرأة التي ظهرت لنا بين القمائن ثم اختفت بعد أن عرفتنا بزوجها صانع الفخار.

ولم أكد أفرغ حتى سمعت صرخة صديقي المباغتة، وأشار إلى شاهد صغير يقبع إلى جوار المرأة، قال: ها هو.. ها هو إنني أراه.

ونظرت إلى الرضيع يضع إصبعه في فمه ويناغي نفسه في تلهية لا يعبأ فيها بأحد.

وانتبه الرضيع إلى وجودنا، فهلل مبتسما، ورفع يديه الصغيرتين إلى صديقي، وفز بجسمه إلى الأمام كأنما ينوي القيام.

الفارس وأنا في غرفتي

برغم الليل المتأخر ظل المذياع يقـول: إن الـذئب صار حملاً.. وإن راعي الحملان سيمنحنا صوفها في مواسم البرد من كل عام.

وكنت ممددا في عريـي الكامـل (وكـان صـوت الصرصار في دمي).

رأيت سقف الغرفة تحملـه أعمـدة الخشـب، كمـا صارت الجدران الأربعة أعمدة من الخشـب، قُفـل البـاب تضخم حتى ملأ الأرض. مات لأدس وجهـي بـين ثـدييها المنطلقتين. انفلت الدم حارا من فتحتي الحلمة، نافورتين.

قلت: أجرب منطقة أخرى.

انغرست في الحلفاء كفي، نظرتما، كانتـا قـدومين برأسين من حديد، ويدين من خشب. (جيفارا) صورة معلقـة فوق السرير – وفي الضمير – بعيون حزينة. على الواجهة المقابلة خريطة لكل الدنيا، خطوطها أفـاعٍ لا تكـف عـن الحركة والتلوي.

قلت: أهز بدني لعلي أستعيد قوتي.

صوت الخشب المتحطم وصوت الصـدأ المنهـال، جربت أن أخلخلها بهزة لعلها تمنحني الحب القوي. ارتفعت

– على الفراش – نخلة عجفاء نام علـى جانبيهـا الجريـد الذابل. عجبت: عنف الهزة لم يسقط ثمرة.

(وكان صوت الصرصار في دمي، ونقيق الضفدع).

حاولت أن أجبر ذهني على التفكيـر بتـروٍ، لأنـي مازلت مصرا على الفعل، وددت أن أصـل لرأسـي. كـان هناك، بجوار الأباجورة، بين الكتب المتراكمـة. الأبـاجورة عجوز عمياء عارية، تبكي. مددت يدي لأسـتعيد الـرأس، طري غاصت فيه الأصابع حتى برزت من محجري العينين. حزنت على فقدي عيني، وعزمت على ترويض نفسي علـى العمى. ثبته في مكانه، وتأكدت بأن الـرأس فـي وضـعه الإلهي، برغم ذلك كان معكوسا، بدليل أن عيني كانتـا بـين ورد الستائر الكبير، وبعيدتين عن وجهها الـذي ينبغـي أن يكون أمامي. سعدت لما جاءتني الفكرة. باقة ورد تُصلح مـا بيننا، وتعيد فحولتي المفقودة، قبضـت علـى الباقـة. فـاح عطرها.

قلت: هاك هدية لقائنا المحرم الحلال.

ماءت بفزع رأس القطة المخنوقـة بيـدي. بخـوف مهول قذفتها على الأرض. رأيتها تطارد فئـران غرفتـي.

فرحت. بذلك تخلو الغرفة من الفئران. عندما تأكـدت أنهـا أكلتهم بجلدهم وعظمهم ودمهم، رأيتم يخرجون – جميعـا – من خلفيتها إلى الجحور.

(وكان صوت الصرصار في دمي، ونقيق الضفدع، وخمش الفئران).

في صمتي قلت: لا فائدة.

وحاولت أن أستعيد التصاقي بهـا. أملـت رأسـها بالشعر الغزير على الوسادة، وفي اللحظة التي رسمت فيهـا القبلة الفاصلة، شاهدت الحمامة المنقوشة على طرف الوسادة تترك غصنها، وتلتقي بـذكّرها. أرجـأت القبلـة، ورحـت أتأملهما من خلاف مقلتي. تناقرا بشوق، ثم نغّم فـي أذنيهـا همسا لطيفًا نشرت على أثره الريش الغض. دار حولها. هدل في خشونة حانية. رقدت على بطنها مخدرة. مطت رقبتهـا برأسها على الأرض. ركبها. في ثانية انتهى الأمر، وداخـا في رقصة ثملة. حين انتهى ذلك حلقا في الهـواء. اخترقـا قضبان غرفتي الخشبية إلى الخارج.

استعدت نفسي. تقدمت بشفتي. سبقهما لسان النـار. زكمتني رائحة حريق الجسد الإنساني. تحركت المنضدة من

الركن البعيد كلبة جرباء تبرز أضلاعها وحدقتاها. تمسحت بي، زعقت في وجهها: إمشي..

لم ترتد حتى قدمت إليها ساقي لقمة، ساد الغرفة هرس العظم المتكسر. حين انتهت لحست جانبي شدقيها، ولعقت بقايا الدم المتقطر، ثم عادت إلى الركن منضدة ترقد تحت الصورة (فارس قديم يمتطي الفرس المطهم. رمحه مغروس في صدر التنين، والتنين حي برغم الطعن والنزيف).

"جيفارا" انفرجت عيناه قليلاً. حلمي بالحريق فيها، بالتبخر، بالتوحد، بالرحلة الناعمة في دمها المتوقد، مازال باردا.

سحبت يدي إلى ما بين فخذي، ارتطمت بالقنفذ المحاصر بالشوك. في خفة نهضت، رقصت رقصة الحمائم. هدلت. أنامت رأسها برقبتها على الفراش. أفرزت عطرها المتقطر في الريش، الفائح في دخان الشهوة. تهت بين غابات الريش المزدهر، حين عثرت على الطريق، وفي لحظة العودة، كان "جيفارا" قد هجر الصورة متجولاً – على الفرس المطهم – في الخريطة، وكنت – أنا – تمساحا يسبح في النيل الأفريقي.

القسم الثاني

بئر الماء الساخن

ها هو الموعد قد أزف، ولم تأت بعد، وقلبي لا يطيق المكوث في الظلام.

-١-

رأى أربعة من الصبية يأتون كقطيع صغير، وكان السور الحجري قد تلاشى، ورفعت الأبواب التي تحجز هذه الساحة، وأضيء المكان فجأة بحزمة من نور، واختفت صناديق الحب، وعشة الفرن، واستعاد المكان حاله الأول، وهو – في ركنه – طوى نفسه على نفسه، ويرقب تحولات المكان، كتم أنفاسه، ورفع يده إلى صدره ليحد من الضربات.

ورأى الشعلة خلف قضبان حجرة العدة، وسمع أصوات الرجال تتعالى والأيادي وهي تمسك بيد الحديد، ودارت الآلة دون صوت، والقطيع الصغير كان يتابع الرجال من خلف النافذة، وحينما بدأ الماء الساخن يتدفق من الماسورة إلى البئر، اقترب منه الأولاد، وراحوا يضربونه بأيديهم الصغيرة، وتجرأ ولد منهم فخلع ثيابه، نظروا إليه بإعجاب وراقت لهم اللعبة، دار الولد العاري نحو جدار الطاحونة، ورشه بماء البول، وفعل الأولاد الآخرون مثله،

وبدوا يختبرون أعضاءهم الصغيرة باللمس، ودنوا من الماء الذي يشكل دائرة حول فوهة البئر، ناموا على ظهورهم وهم يرفرفون بأيديهم، فيتناثر الماء في الجهات حتى ابتل الوجه برذاذ خفيف، مسحه بحذر، ثم اندفق رذاذ كثيف، انبثق من فوهة البئر، وشمل المكان جميعه حتى أن الغبار الناعم اهتاج، وأثار عاصفة ترابية أخفت أجسادهم عنه، حينما هبط الغبار، وانجلى المشهد، رآهم يحملقون في البئر، ثم هرعوا فجأة تاركين ثيابهم، وكانوا قد صاروا ثلاثة.

لم أعد أرى شيئًا البتة.. وأنا أخاف الغريق، وهي لا تريد أن تأتي.

-٢-

رأى نخلة تنتصب في المكان وشجرة توت يزدهر ثمارها في غير موسمها. وشم أنفه رائحة النعناع والريحان تفوح من حوض الأرض المزروعة على البئر إلى جوار السور الواطئ للمصلى الطينية. وكان الكهل بلحيته الطويلة البيضاء يلهج لسانه بأوراد الفجر، عبر سور المصلى. واتجه إلى جذع الشجرة، رفع جلبابه من أمام وأخرج ريحا مخنوقًا،

ثم قام إلى البئر، وراح ينزح الماء بيمينه إلى سوأتيه، بعدها شمر أكمام الجلباب، ومال بوجهه إلى الماء، وارتفع صـوته بأدعية الوضوء، كان يود أن يدنو منه ليتملى سماحة وجهه. نادى عليه: جدي... يا جدي... ولكن الرجل لم يلتفت إليـه كأنما لم يسمع نداءه، قام يجفف وجهه بـأطراف الجلبـاب، وسار باتجاه باب العدة، مر من أمامه مباشرة، ولم يهتز لـه جفن، نادى عليه بصوت خفيض: جدي...

واختفى جسد الرجل، وبقي صوته يردد آياته القرآن، وقال لنفسه متحسرا: له العذر... لأنه مات قبل أن أولد.

هل كانت تخدعني حين ضربت لي الموعد... فـي هذا المكان!

-٣-

رأى النسوة يأتين نحو البئر، نظرن إلى المصـلى، فوجدنها فارغة، انطلق منهن ضحك مغرد، وقلن هامسـات: ذهب حمونا إلى الصلاة.

وبدأن في رفع الجلابيب والقمصان، وتركنها علـى سور المصلى، وسرن عاريات إلى البئر، أرحـن أردافهـن

الثقال في البقعة الدافئة، وسرن ينزحن الماء بـأكفهن إلـى صدورهن، وتجرأت واحدة منهن، وهبطـت إلـى البئـر، واختفى رأسها تماما، والأخريان حلتا ضفائر الشعر المبتـل، وغطستا في البئر معها، وهو – من مكانه الخفي – ينصـت لهمسهن البهيج، ولحكاياتهن عن تلك الليلة، كانت كل واحدة منهن تفاخر الأخرى بفحولة زوجهم، ثم خرجن من البئـر، وهن يعصرن الماء عن عريهن، وينثرنه عـن شـعورهن، وارتدين هدومهن على البلل، واختفين قبل أن يؤذن للفجر.

ها قد أوفت بوعدها.. وجاءت فـي اللحظـة التـي قررت فيها القيام.

-٤-

الباب الهش استجاب لجسمها وهي تمرق منه، كانت تبدو كطيف نوراني، يطير في فضاء الحـوش، لـم يسـمع لأقدامها صوت، وهي تدوس الأرض، ولم ينـتفض الغبـار لسيرها، وتزحزح قمر كان يختفي على سطح الدار، وتوسط المكان، وأقبل عليها، لم يلمس يـدها بعـد، بـل اسـتغرقته صورتها المهتزة على الماء وهي ظلت على صمتها تنظـر

حيث ينظر، الصورة تهشمت على صفحة الماء، فصارت تبدو كراقصة مبتذلة، رفع كفه إلى عينه ليخفي الصورة المشوهة.

بعد برهة رفعها ليحتويها بين يديه..

كان القمر قد عاد إلى مكمنه، وصار ثوبها الأبيض الشفاف هو الضوء الوحيد في المكان.

- تعال إلى هناك. وأشار إلى صندوق الحب.

- تركتني زمنًا لأطياف الأوائل.

- تكلمي.

ومد يديه إلى ذراعيها، فاستشعر خشونة، فزع لها قلبه، ولكنه تماسك حتى لا يبدو نافرا منها.

ولما فرد ذراعيه عن آخرهما ليضمهما إليه، وجد أن جسمها لا نهائيا، ولا طاقة له باحتضانه، مال برأسه إلى صدرها ليكثف جهده المهدر، فلم يحتمل صدغه الأشواك المشرعة، أطلق يديه في جسمها تبحث عن نعومة البدن، فصدتها بخشونة ذكورية، لما أفاق من هذا عاد لينظر إليها، وكان – القمر – قد أطل عليهما مرة أخرى، ودنا حتى صار سقفًا للمكان.

ورأى أنه يحتضن الفراغ، وما كاد يعود بظهره حتى رأى الجسد الذي وثب إلى الماء الساخن، ظل فتـرة يبقبـق ويصنع رغاوٍ فوارة على وجه الماء، ثم انطفـأت الفقـاقيع، وعاد كل شيء إلى سكون البداية.

مصبـــــاح الجــــــاز

أفكاره في هذا الليل الشائع خارج أسوار الدار تنتمي للعمر الحالي، وجسمه يتبع الزمن الأول، كان يرتدي منامـة خفيفة، قماشها لامع وطري ينساب علـى البـدن الصـغير، ويترجرج سروالها الفضفاض بين ساقيه، يرى نفسه – مـن خارجها – واقفًا تحت الفسحة الخالية من الأشجار، ويرى يده تنقل طعاما – لا يشعر بمذاقه – من أطبـاق صـفت علـى طاولة قديمة، وعينه كانت تجول ما بين دور الجيران المغلقة النوافذ والفسحة المضاءة بنور ابتسر من ساعات الغـروب، لا يبين من الخارج غير واجهات الدور.

والإحساس الذي يمور بداخله هو الفرحـة بـالعودة المطمئنة.. يقع نظره على نعمة وهي في سنواتها الأولـى، أيام كانت تعيش في بيت الأب، كانت مبتهجة بعودته، تحوم حوله وهي ممسكة أشياء غامضة على الصنبور تملأ آنية من الألمونيوم، وتمسح قطرات غير مرئية عن وجهها، وظلـت تختفي داخل الدار ثم تعود.

(لماذا حين عدت ولجت هذه الدار بالذات؟ فكم مـن دار عشنا فيها عبر مراحل العمر المختلفة!!).

(ولماذا اختفت هذه الأشجار، كان ظلها مرتع صبانا، نعلق على فروعها أرجوحتنا الصغيرة، وأين راحـت هـذه الأدوات التي لا يخلو منها ركن من أركان الفسحة، كنا نقيم بها بيوت الطفولة؟).

وسمع صراخ إسماعيل من الشارع، كان يهـدد إذا تقاعس في تنفيذ ما طلبه (هذا ليس من عملي، هو المنوط به هذا الأمر).

واندفع يحادثه بكلام منضبط، لا خلل فيـه، خشـية الاندفاع العصبي تجاهه، وارتقى السور ليسمعه مـا يريـد، فرآه في جلبابه الأبيض، بسحنته التي تنم عن رضـا نفسـي مؤقت، وهدده إسماعيل بأنه إذا لم يطع أوامره سيقتحم بـاب السور، ويهجم عليه ليذبحه.

ولكنه لم يخش تهديده، فهو يخفي له مفاجأة سـتبدل انفعالاته، كان قد أرسل إليه طردا من البلاد التي قدم منهـا يحتوي على هدية رائعة (يبدو أنه تعثر في الوصول إليـه) وهو يعلم أن صندوق البريد مثبت في أحد جوانب السـور، ويكفي أن يمد يده إلى الخارج، فيسحب الطرد، ليريه إيـاه، ويثبت صدق شعوره الأخوي.

وواصل صراخه من وراء السور.

ونعمة التي كانت تتردد في المكان، تركت ما بيدها، ووقفت إلى جواره لمناصرته.

ورآه يدفع باب السور، كان وجهه يحمـل ملامـح المكر التي ينكرها عليه، (هو الآن في حال المناكفة، يريد أن يحد من وثوقي، ويظهر أنني لا أعنيه في شيء.. قد تكـون غضبته بسبب تأخري عليه كثيرا، ويريـد أن يظهـر قلـة احتياجه لي، أو يواجهني باللوم والإدانـة لخيانـة أفكـاري، لأنني تركت الوطن إلى بلاد لم أكن أكف عن انتقادها).

هم الآن في غرفة مضاءة بنور مصباح الجاز.

وعلى غير توقع رأى أمه جالسة في ركن، أشـاحت بوجهها عنه، وكأنها لا تحفل بقدومه (بالتأكيد زعلانة لأنـي لم أرسل إليها شيئًا).

(وهل شيء ما يفيدها في مقبرتها؟ إنه لا يمكـن أن يلبي لها رغبة في العالم الآخر، ولكنها الأم على كـل حـال تفرح برزق ابنها، وأنا كنت مقصرا معها طول حياتها بيننا، فهي منذ رحيل الوالد، لم تمد يدها لأحد منا، ظلت مكتفية بما

تجود به الأرض، كم وددت ولو أساعدها، ومحدودية راتبي لم تسعفني في أن أعطيها من فائض الدخل الشحيح).

جلس إسماعيل على حصير الأرض، جلست نعمة إلى جواره، وتمدد هو على الكنبة، وقال: هذا هو الطرد.. فض أوراقه.

كانوا يتهامسون حتى لا تسمعهم الأم التي أسدلت طرحتها على وجهها، وفردت ساقيها أمامها، وأسندت رأسها على الحائط، لتبدو كأنها مستغرقة في النوم، بينما هو يستشعر يقظتها.

نظر إسماعيل إلى الشيء بين الأوراق المفضوضة، وهو يواريه عن عين الأم، ثم هز رأسه ومط شفتيه دلالة على عدم الاقتناع، حدثته نعمة بصوت خفيض: شيء معقول، ثم إنه غير ملزم.

وأشار إليهما بأن يتحدثا بحيث تعجز الأم عن متابعتهما.

ورآها تتململ في جلستها، وجمعت ساقًا وأبقت الأخرى ممددة، وألقت عليه نظرة معاتبة، ثم انخلعت بجذعها إلى جهة الحائط، لا تريد النظر إليه.

وحرك إسماعيل يده تجاهه بحركة من الإبهام والسبابة، أفهمه بها أنه رغب في شيء آخر، فقال له: ها أنت تراني أعود بلا شيء.

وأراد أن يشرح له ظروفه، كيف دبر ثمن الهدية، ليظل على شعوره الودي، ولكنه آثر أن يحفظ سره لنفسه (هو لن يقتنع أبدا).

ونعمة اقتربت من أذنه استغرقا في محادثة هامسة.

واتجهت عينه إلى ركن الأم، رآها تلتفت نحوه فجأة، رفعت طرحتها، وأرسلت بصقة، استطاع أن يتفادها، فالتصقت على حافة الكنبة، وظل الهمس يتردد بين الأخوين، والأم نهضت من جلستها، رفعت مصباح الجاز عن الرف، واتجهت به نحوهم، انتفض لقدومها، لأنه لا يعرف ما تريد، والهمس تلاشى، والوجوه انطمست ملامحها، حين نفخت الأم ذبالة المصباح.

قام عن الكنبة يتحسس الجدران، نادى على أخيه، فلم يجب.. استغاث بالأخت فلم يسمع لها صوتًا (اختفى الجميع من الغرفة) اتجه نحو الباب مسددا يده أمامه، وكان يخشى أن يصادف جسد الأم، غير أنه لم يصطدم بشيء، لامست يده الضلفتين، وعندما رفع قدمه ليمرق من الباب هوى جسده في بئر حفرت على عجل، أسفل العتبة بالضبط.

الـــدار الأخـــــــرى

الريح.. الريح عبأت جلبابه، دومت حولـه، رفعتـه وحطته، فكان يدفع بدنه الناحل إلى الأمام، قارب من ألـواح خشبية عتيقة يلاطمه الموج العاتي هل ما يسمعه هدير الماء؟ أم ضجيج السوق؟ هو يخترق لحم النسوة، في ذلك الضـحى العاصف، انسل من فراشه. في بيت ابنته الوحيدة، فقد جاءه على هيئة حمامة بيضاء مرفوفة تنقر زجاج النافذة، ولم يكن ليتصور أن يلقاه في غير داره.

البنت كانت في المطبخ مشغولة بطعام الغداء، للزوج والعيال، تردد مقاطع أغنية وهي تدير ظهرها للباب.

وقام بعافية مهر، يرتدي الجلبـاب علـى القمـيص الأبيض، وحبك الطاقية البيضاء وسحب النعل مـن تحـت السرير، ودع علب الدواء وأنبوب "الجلوكوز" وإناء البـول، وعدة الأسنان والشعاع المخنوق بزجاج الغرفة، هل الشارع هو الشارع؟ إنه يسير بذاكرة الأقدام؟ خيط غير مرئي، علق في رقبته، ويجذبه بلطف، لأنه صاحب الجبروت، لأنه القوي الذي لا يرد، فهو يأخذ بيده، لا إرادة له بالمرة، فيما يقوم به الآن، مجرد استجابة للنداء، ويعبر الشارع الرئيسي، النسـوة زنابير تطن، وحوارات حادة بين البائع والشاري، وروائـح

الخضار المدهوكة بالأرض تنفذ إلى أنفه. هو يسير في مدينة من الأشباح، تدنو السحن إلى مجـال النظـر، متضـخمة، وبأفواه مشوهة، تطلق الطنين المكتوم، وهو لا يلوي علـى شيء، يده المعروقة سقطت بـإرادة منهـا، لترفـع طـرف الجلباب، أيعرفه ذلك الشخص الذي يقف على طوار صالون الحلاقة؟ طلت عليه وجوهه المكرورة على الحوائط ورفع يدا إلى رأسه هيئ له أنه يحيه، وسمع صوتًا يخرج من جوفـه، ومن جمله المكسـورة، التقطـت أذنـه كلمـة أو كلمتـين: سلامتك... ألف.. وهيئ له أن وجها واحدا من وجوه الرجل اتجه نحوه، واقترب منه جدا، وشعر بكف الحـلاق راسـخة حارة تلتف حول عضده، فوكزها متذمرا، واندفع مـن فمـه الفارغ هواء يقول: دعني وشأني.

ثم انحرف إلى الشارع المتفرع جهة اليمين وأحـس أنه يميل كثيرا إلى الأمام، وأن الأرض تطوى تحت قدميـه، فمال إلى الجدار، وركن عليه بيمناه، أجرام البيوت والكائنات التي تسعى من حوله تتبعج كأنه ينظر إلى مـرآة مهشـمة، وأصوات آلية مبتورة تخرج من فتحات الدور، أيكون هـذا الصوت الذي غلب على الأصوات جميعا هو لمؤذن الحـي؟

هذا الحد من الظل يتوافق مع آذان الظهر، ها هي الـذاكرة الحية تستعاد، لأنه دخل مكان الألفة، ها هـو بيتـه القـديم، سيتأكد لما يفتح الباب، ويرى مستطيل الشمس يلامـس أول الكنبة، فيجزم لنفسه: أنه أذان الظهر.

وتذكر أن يده العرقانة تقبض على المفتـاح، كيـف عثر عليه؟ يذكر أنهم حين جاءوا ليرفعوه إلى هناك، لم يترك المفتاح من يده.

الآن هو داخل ردهة داره، شم أنفه رائحـة العتمـة والرطوبة، والعناكب التي نسجت خيوطهـا فـي الأركـان انتبهت للضوء وبدأت تتحرك في بيوتها بحذر خرجت مـن حلقه سعلة لا إرادية، ووجد نفسه يقف أمام الصنبور، سـال منه ماء، أصفر عطن، فغسل الكفين إلى الكوعين، وتنشـق الماء ثلاثًا، ومضمضه ثلاثًا، ورفع الماء إلى زنـده حتـى المرفقين، ومسح منه على رأسه، ودعـك بإصـبعين فـي الأذنين، واستند على الحائط ليرفع الساق اليمنى وأنزلها، ثم رفع الساق اليسرى.

ثم عاد بظهره إلى الكنبة، وسقط عليها وهو يلهـث من الجهد، وثار حوله غبار خفيف.

فيما بعد سمع غناءها يأتيه من الداخل، فانتابته يقظة مضاعفة، وتلفت جهة الصوت، وقطع الغناء بسؤال: خلّصت يا حاجة؟

وسمعها ترد عليه: مسافة الصلاة يكون الأكل جاهز.

نكهة طعامها فاحت في المكـان، وضـجت الـدار بصوت الوابور الذي يتداخل مع غنائها.

وأشرق الوجه الكهل بابتسامة وهو ينظر إلى فخذها تبين من باب المطبخ وتمكن منه الشوق إليها، فتحامل علـى نفسه لينظرها قبل الذهاب إلى الجامع، أراد أن يقوم غير أن الخيوط الكثيفة تمكنت منه، وتزايد حولـه النسـج فاستسـلم لجلسته، وانفلت الرأس إلى الوراء، ليرتاح على المسند.

وجاءه القط الأسود من عتمة الداخل، ودنا من قدميه يلعق ماء الوضوء، ثم واتته قوته الحيوانية المخزونة، فوثب إلى حجره ليلعق الماء الذي يقطر من أصابع اليد الباردة.

المقهى أغلق أبوابه

ظل يرفع حقيبته ذات الخيوط الحريرية المتينة بيده، ويخوض في ماء المطر الذي انقطع للتو، ترك وراء ظهره قاعدة التمثال الفارغة، واتجه نحو المقهى الذي اعتاد فتح أبوابه طوال الليل.

لا أحد في الميدان..

كان خاليا تماما من البشر والسيارات، وتشمله ظلمة معتمة، كحال مدينته حين ينقطع عنها التيار الكهربائي عند الغارات الجوية، لم تلمح عينه عمود نور، ولا مصباحا من تلك المصابيح التي كان يجلس تحت نورها، على رصيف الميدان ليتبادل والأصدقاء الحديث في السياسة والفن.

كانت أبواب المقهى مغلقة، ويلف الركن الواقع تجاهه ظلام لا يبين شيئًا البتة.

رفع جسمه على السور الحديدي، خلع النعلين ليطلق لقدميه الحرية، بينما ظلت يده متشبثة بالحقيبة (منذ متى لم أخلع هذين النعلين؟).

هيئ له أنه لم يخلعهما منذ رحيله إلى تلك البلاد التي غادرها من ساعات قليلة. (لماذا غيروا مكان المطار، أذكر أنه كان بشرق المدينة، ولكني دخلت الميدان من جهة

الغرب). انمحت كل الأحداث التي سبقت وجوده هنـا، كـل ما يدركه الآن أنه قادم من سفر بعيد، وكان يمنّـي الـنفس بقضاء بقية الليل على طوار المقهى بين الأصـدقاء الـذين فارقهم: ليعيد النشاط إلى ذهنه، وليوزع عليهم هذه الوريقات التي تضمها حقيبته.

وقفز إلى ذاكرته ذلك اليوم الذي واعده فيه صـديق، قال: انتظرني على مقهى الميدان الكبير السـاعة السادسـة تماما.

ولا يدري لماذا تثبت لديه أن الموعد الذي يريده هو السادسة صباحا، ونزل من مسكنه مع الفجـر، ركـب أول أتوبيس، واندفس بين الجنود العائدين إلى وحداتهم العسكرية، وتناول فطيرة طازجة محلاة بالسكر الناعم من ذلك العجوز الذي يقف تحت مظلة الموقف.

ورفع نظره علّه يرى هذه المظلة التي تقـع خلـف الفندق الشهير، ولم ير غير مردة تتمدد بطولها ما بين حافـة السماء وأرض الميدان. (هل هي السـحب الشـتائية القلقـة أم هذه أشباح لحراس الليل؟).

وقدم إلى هذا المقهى فرأى رحيل زبون الليل وقدوم زبون الصباح اختار طاولة بجوار البـاب ليرقـب حركـة الميدان من زجاج المـدخل، ومـرت السادسـة والسـابعة والثامنة، وملأ الصبح ساحة الميدان بالحركـة والضـجيج، ولم يأت الصديق، وحين عاتبه، قال: أنت مجنـون.. كنـت أقصد السادسة مساء، أم رأيت أن نتم اللقاء قبـل اسـتيقاظ الحكومة من نومها؟

كان إحساسه بجلال العمل وسـرية تبـادل الأوراق تقتضي القيام مبكرا.

لمح دركيين يقبلان من جهة القاعدة المنصوبة كصنم جاهلي مهول – كانا – بزيهما الشتوي الثقيل خنفستين تزلقان من جدار أملس. (من دواعي السلامة القيام من هذا المكـان، لأحاول البحث عن مقهى آخر).

ثبت يد الحقيبة على كتفـه، واتجـه إلـى الشـارع المقابل، ظل يتفادى بقع الماء المتناثرة مثل السائر في حقـل الألغام، ورأى إلى يمينه – علـى أول الشـارع – رجلـين يتحادثان بصوت هامس، وبدا أنهما لا يشـعران بوجـوده، ولا يعنيهما أمره، وقبل أن تحتويه ظلمة الشارع الذي يبـدو

كسرداب لا نهاية له، أحس أنه يسير على الأسفلت بقـدمين عاريتين، (إذن فقد نسيت النعلين أمام المقهى!).

ولم يكن من المعقول أن يواصـل المسـير هكـذا، وعسير على نفسه العودة من حيث أتى، فهو يخشـى ريبـة الدركيين، (لا مفر من العودة).

وقرر البحث في نفس الموضع الذي تركه منذ قليل، وجد أحد الدركيين يتأمل النعل بحذر، والآخر يتحسسه بعصا طويلة في يده، دخل بينهما، وضبط النعلين في قدميه، كانـا يرقبانه بصمت، ولم يسأله أحدهما عمـا يفعـل، واختفيـا – فجأة – في كتلة الظلام.

وآب إلى الشارع السردابي، وقبل أن تحتويه بناياتـه السامقة شلت حركته من أثر النور المبهر الذي تجمع علـى بدنه في بؤرة مكثفة جدا. وخفق قلبه للنـداء الحاسـم: قـف مكانك.

حوم بنظره في شبه دائرة بحثًا عن مصدر الصوت، فرأى شرطيين يقفان وسط الميدان، كانا بزي مختلف، أقرب إلى زي شرطة البلاد التي غادرها، ووجـد نفسـه يسـير نحوهما بلا إرادة منه، كان عقله مشـغولاً بـالتخاص مـن

الحقيبة، (مع هؤلاء الأمر مختلف). ثم رآهما يسحبان الضوء عن بدنه، ويهتمان بأمر عن لهما، ورآهمـا يتجهـان نحـو طرف الميدان ليعاينا حادثًا لم يكـن فـي الحسـبان، (هـل الهروب مجد فيه هذه اللحظة؟) كانت تتنازعه الرغبـة فـي الانفلات منهما، أو على الأقل الاحتماء بجـدار مـن تلـك الجدران القائمة، أو ينتهز فرصة انشغالهما فيفـر إلـى أي مكان، (ربما لم يعد أمري يعنيهما الآن.. قد تكون صيحتهما مجرد عمل روتيني).

ودنا منهما بفعل مغناطيسية لا سيطرة له عليها، لاح لعينه زحام شديد من رجال الشرطة، يرتدون نفـس الـزي، و.. ومضت في عينه أضواء سيارات البـوليس مـن أثـر الومضات الفاضحة، ورأى نفرا منهم يتحلقون حـول جسـد ملقى على الأرض، وشملته رغبة قوية في استطلاع الأمـر. وانتصبت قاماتهم وهم يرفعون الجسد، كان لرجـل يرتـدي جلبابا بلديا ممزقًا، والدم كان يسيل بغزارة من فروة رأسـه ليغطي معظم الوجه، واليدان كانتا متهدلتان تبينان من بـين المزق كأنما مبتوران ومعلقتان ببقية من جلد لا تحميهما من السقوط، برقت العينان في الضوء المفاجئ، وحملقتا نحوه في

شبه استغاثة، وفي اللحظة التي عزم فيها على اقتحام حلقـة رجال الشرطة، وجد نفسه مكبلاً من الخلـف، وخلـع أحـد الضباط الحقيبة عن كتفه، فتح غلقها، وضرب بطاريته فـي عمقها، ثم رفع عينه الكارهة في وجهه: منشورات!!

- هدوم السفر.

فتفل على الأرض، وصرخ بعصبية: اخرس.

وانهالت عليه أيادٍ لا حصر لها.

(هذه هي النهاية.. إنهم لا يرحمون). (كتـب علـي ألا أعود لبلادي أبدا) وأُلقي به في صندوق السيارة..

أراد أن ينهض ليمكن أنفه من الهواء الحر، ذلك أنه شعر بالعرق ينز من جماع جسمه إثر حرارة مكثفة في الحيز الضيق، ولم يسعفه جسده المرضوض، ولمس اللزوجة السائلة من وجهه، أراد أن يضع كفه في مواجهة العينين ليتأكد إذا كان هـذا الـذي ينزفه دما أم هو العرق الدبق، كان هذا السائل يغطي عينه.. و.. و.. ومضى النور بالخارج، فتمكن من رؤية السحن التي تحوطه، كان مغلولاً بأطراف لحي أخطبوطية، وتأكد له أن ما لمس هـو عصارة جسمه الطافحة على الجلد بسبب الاحتضان الذي هوى به في بحر من شعر.

انطـــفـــــــاء

(أ)

هي التي طلبت هذا اللقاء..

والآن تجلس أمامه على الطاولة، في ذلـك المحـل الراقي في وسط البلد.

وكانت قد دست له الورقة خلسة حتـى لا يلحظهـا زملاء المكتب، طالعها، وفاجأه أنها تحدد موعدا للقاء.

إذن فهي قد فهمت ما يدور بداخله.

لم يكن من اليسير أن يفتح معها حوارا، فهـي دون الأخريات يمكن الشك في سلوكها، كان يعرف أنها معذبة في حياتها الزوجية، وكانت تختلي بالمـديرة لتعـرض عليهـا عذاباتها، وهو يسترق السمع إليهما، ويراها حـين تباغتهـا نوبة البكاء، ينتفض بدنها اللدن، وتسـيطر عليـه ارتعاشـة لا تسمح لها بالجلوس، فتقوم الزميلات إليها، ويحطن بهـا، وتظل تنشج في بكاء عصبي، يسيل معه كحل عينيهـا فـي خيوط ممتدة حتى حواف شفتيها، حينئذ لا يستطيع المكـوث في المكتب، يغادر إلى الخارج، ويقف في الطرقة بانتظـار الإذن، ليعود إلى مكتبه، وينظر إليها، فيراهـا وقـد هـدأت كثيرا، وتتملى وجهه بحذر، وتصله رسالة عينها الحزينة.

في مرات قليلة استطاعا أن يختليا.

حين يتاح للزملاء ترك المكتب إلى الصراف، أو حين يذهب إلى عمله مبكرا، فيجدها وحيدة، يدور بينهما حوار سريع لاهث، كأنما يريدا أن يقولا كل شيء مرة واحدة، قبل أن يقتحمهما الآخرون.

وقد يلقاها صدفة، أو عمدا في الممشى بين بنايات المكان، وربما صادفها في الشارع عند قدومها في الصباح، يتبادلان كلمات سريعة خاطفة ثم يدخلان من البوابة، فيصمتان تماما، ويبديان سحنًا متحفظة.

وفي هذه اللقاءات القليلة حدثته عن حياتها مع زوجها، وتيقن بأنها تحمل في طيات نفسها روحا قلقة متمردة، لا ترضى بالحياة البسيطة، فهي تظن أن حظها التعس هو الذي أوقعها في حبائل هذا الرجل، فهو كالآخرين، لا يتميز بشيء خاص، ولا يمتلك موهبة ملفتة، وهي كانت تود لو ترتبط برجل مجنون، يصحبها إلى الأماكن الفخيمة، ويزور معها المدن البعيدة، ويحقق لها طموح حياتها في الملبس والزينة والسكن الراقي، ولكنها أجبرت على الحياة مع هذا الرجل العادي، لا شيء في حياته غير العمل، وهو

عاجز عن إثارة خيالها، وغير قادر على العيش فـي دنيـا الأحلام التي لا تفارقها أبدا.

قالت في الورقة "إنك الرجل الذي حلمت به".

وهو سعِد بهذا، فقد حان أن يغير نمط أيامه الفارغة التي يقضيها ما بين المكتب والشقة التي استأجرها في حـي من تلك الأحياء الناتئة في جسد المدينة الكبيرة.

وكان قد خبر تصرفاتها، وعرف أي نوع من النساء هي، وغذى فيها تلك الأحلام الضائعة، وجسد لها شخصـية الرجل الذي تفتقده، كانت عصية أول الأمر، لا تبـدي لـه نظرات خاصة، ولكنه أصر على المواصلة، فكـان يختلـق الحوار مع الزميلات، ويقص عليهن طرفًا من حياته خـارج العمل، ليبدو أمامهن وكأنه ذلك الصعلوك الذي ينطلق فـي حياة حرة، لا ضابط لها، فظهيرته يقضيها في التنقـل بـين المقاهي، ويمضي الليل في الحانات، ولا يعود إلـى شـقته – كل ليلة – إلا وقد انبلج الصبح.

كل يوم يضيف حكاية مثيـرة، ويرقبهـا، ويجـدها تنصت بشغف، ويسمع طقطقة شفتيها، والتنهيدة الحارة التي تنفثها من صدرها.

وتعليقها في جملة تحمل كل معاني الحسرة: أما نحن فننام بعد العشاء كالدجاج، ثم انتبـه لالتفاتاتهـا المغـايرة، صارت تقبل عليه ببشاشة محببة، وحين يرفع وجهـه عـن أوراقه تدوخه بنظراتها الملتاعة، ويبتسم لها، وترد بابتسامة لطيفة فيها دعوة للصداقة والمودة.

وتطورت الأمور أكثر، فقد انتاب كليهما الإحسـاس بأنهما كائنان مختلفان، وأنهما مضطران للعمل فـي مكـان لا يليق بهما، ولا تنقصهما غير الأجنحة التي تسـمح لهمـا بالتحليق عاليا في سماوات لا نهائية.

ولم يعد في مقدوره تحمل تلك الشـحنات العاطفيـة اللاهبة، وهي لم تعد تتصرف بتلقائية تجاهه، وشعرا بحصار الزملاء، فقد لمحوا – أكثر من مرة – بما يشير لتقاربهمـا، وانقضى الزمن الذي أتـاح لـه التعامـل معهـا بحريـة، ولم يستطع أن يحسم الأمر، فهو يريد منها أن تخطو الخطوة الأولى.. وترك العلاقة تنضج وحدها.

وفي بعض الأحيان كان يستشعر أنها تفتعل الاحتكاك به، فربما دخل من باب المكتب، فيفاجأ بوجودهـا أمامـه، فيصطدم بها، تطلق آهه الاندهاش المخزونـة، وأحـس أن

كليهما يخشى لحظة الانفجار، وأصـر علـى مزيـد مـن الانضباط، لابد وأن تخطو هي خطوتها الأولـى وعليـه أن يصبر.

وها هي الثمرة قد نضجت، وسقطت وحـدها مـن شجرتها، حتى واتاها موسمها.

طوى الورقة بحرص بعد أن قرأها، وأخفاهـا فـي جيبه، ورأى عين الزميلة المثبتة عليه، ولم يحفل بها.

المكان محدد، وكذا الزمان.

(ب)

إذن هي التي اختارت..

وها هو يجلس معها على الطاولة..

فاجأته بتسريحة شعرها الهائشـة، وثـوب السـهرة المبثوث على قماشه قطع من الترتر البراق، وأزعجه أنهـا صحبت معها ولدها الصغير الذي اقترب منه بعد دخولهمـا من باب المحل، أشارت إليه، وقالت: عمو.. يا عمرو.

كان يريدها وحدها، وهي حين شعرت بأنه لم يرغب في وجود الولد، بررت ذلك بأنها لم تستطع تركه في البيـت وحده، فأبوه يذهب إلى العمل الآخر، ولا يعود قبل العاشرة،

ولم تفكر في تركه مع جدته حتى لا تعرض نفسها للسـؤال عن سبب خروجها بهذه الملابس الملفتة.

تمسح به الولد، ووضع يده الصغيرة علـى فخـذه، وقال:

جيلاتي يا عمو.

- حاضر.. سأطلب لك كل ما تريد.

- وببس.

- عمرو.. عيب.

وأرادت أن تشده إليها غير أن الولد خلع يـده منهـا ولجأ إليه، مال بوجهه على فخذه، فراح يسرح يده في شعره الناعم، فاستنام الولد لحركاته بوداعة.

وشعر بدبيب النمل في جسده.

بعد أن وضع الجرسون الجيلاتي وزجاجات الببسي، انشغل عمرو بكأسه، ظل واقفًا تجاه الطاولة ينقل الملعقة من الكأس إلى فمه، ودخلا هما في حوارهما الخاص.

كانت لا تكف عن إطـلاق التنهـدات وهـي تبـث لواعجها.

سألها عن زوجها، وحياتها معه، ما هـي المشـكلة بالضبط؟

قالت إنها أحبته – في البداية – كما لم تحب امـرأة رجلاً قط، وسرعان ما اكتشفت أنه مجرد حيـوان، يأكـل، ويقضي حاجته، ويمارس الجنس بروتينية مقرفة، وقالت إنك لن تصدقني حين أقول لك إنه صار لا يقربني الأيام الأخيرة، وإذا حدث ذلك – وقليل ما يحدث – يفعله دون حماس.

- فاهم.. فاهم.

أدهشه أنها تتكلم بهذه الصراحة وبقليل من الـتحفظ والافتعال.

وسال الجيلاتي على ملابس عمرو، وسـقطت منـه قطع صغيرة على الأرض، فرفعت يـدها وصـفعته علـى وجهه: تعال هنا لأطعمك.

ورفض الولد الذهاب إليها، وتقلـب علـى الأرض، وهو يطلق العويل، فقام إليها ليرفعه على ساقه، وليهدئ من روعه حتى تنحسر تلك النظرات المزعجة التي وجهت إليهم من زبائن المحل، وراح يهدهد الولد، ويمسك له الكأس، وبدأ

يطعمه بقطع يرفعها على حافة الملعقة، واستجاب له الولـد وهدأ جسده تماما.

وعاده الدبيب من جديد..

وسقطت يد الولد على حين غفلة حتى لامسته، فابتسم الصغير، ووجه كلامه إلى أمه: عمو..

وزحزحه إلى أطراف الساقين، وانهمك فـي لملمـة نفسه من أسفل ولمح رعشة عينيها، وخشي أن تكون فهمـت ما يعنيه الولد.

وأخرجت منديلاً ورقيا لتمسح به حول شفتيها، كانت ترفع المنديل أمام عينيها لتلحظ آثار "الروج" وتعض علـى أسنانها، وتخرج لسانها الوردي لتضبط به دهان الشفايف.

ومرة أخرى استعادت حالتها الأولى.

وأذهله أنها تحدثت عنه، كيف لفت نظرها منذ قدومه للعمل..

وقالت أنه الرجل الذي تود الارتباط به.

وقالت لا يهم أن يكون الارتباط بالزواج، بل يظـلا على حالهما، تكتب إليه، ويكتب إليها، ويلتقيان لبعض الوقت في مثل هذه الأماكن، حب روحاني يعني. أم لا يعجبك هذا؟

وأخذ بالسؤال، وأراد أن يشرح لهـا نظريتـه فـي الحب، وأن يحادثها عن الكتاب الذي طالعه وتقـوم فكرتـه الأساسية على تفنيد مسألة الحب الروحاني هذه، فللحب دوما أساس مادي، هو الاتصال..

- أعرف.. أعرف.

وخشي موافقتها على ذلك، فهو لا يستطيع مصاحبتها إلى جحره الذي يقيم فيه كفأر الأرض الشراقي.

أحس ببلل على سرواله أسفل مقعدة الولد، وقال متوددا:

فعلتها يا جميل.

انزعجت هي وقامت مـن مكانهـا، ومـدت يـدها لتضربه، ولكنه أمسك به.

- أرجوك..

- تعال لأغير اك.

- دعيني من فضلك أفعل ذلك.

ونزل بالولد عدة درجات أسفل المحل حيـث وجـد المراحيض تقبع ساكنة في مكانها تحت الأرض، دخـل بـه واحدا منها، وأنزل له السروال، ثم قربه من العـين، ولكنـه أبى، وقال له: خلاص عمو..

القسم الثالث

عيون سوداء في العرس

- ١ -

جلسنا على مائدة في حجرة خالية من الأثاث والفرش، لها نافذة تطل على ساحة ضاجة بالجيران والأقارب الذين تزاحموا في الخارج تحت اللمبات الملونة، وكنا قد رأينا المسرح المعد والزينات المعلقة على أعمدة خشبية وباقتين من الورد موضوعتين في الخلفية وراء ظهر الكرسيين المذهبين.

من المؤكد أنهم أعدوا هذه المائدة على عجل، وصفوا حولها عددا من الكراسي، جلست أنا على أحدها، ووجهي للباب، وإلى جواري كان صديقي، وأمامنا كان يجلس مسعود والعريس.

لكزني صديقي في جنبي، وقال: انظر إلى مسعود إنه يأكل بنهم.

قلت له وأنا مشغول بالنظر إلى الباب لعلي ألمح مرة أخرى هاتين العينين اللتين رأيتهما يرقبانني: الرجل جائع.

فقال وهو يدفع ملعقة الرز في فمه:

إنه لا يأكل غير اللحم.

- وماذا يعني هذا؟

- معناه أنه ولد سيئ النفس جدا.

ولم أحفل بما قاله، وعدت أرنو إلى الباب، فرأيـت الوجه الجميل يطل من جديد، كانت صاحبة العينين قد وقفت وسط الصالة، في خفاء الظل، تثبت نظراتها علـي، وخفـق قلبي بشدة، وقلت في نفسي: ها هي امرأة جميلة تقـع فـي غرامي، ربما رأتني وأنا أدخل البيت فشغفتها حبا.

كانت العينان ضاحكتين، وصاحبة الوجه لم تلتفـت لغيري، وكنت أخشى أن يلحظ صديقي وأردت أن يكون هذا هو سري الوحيد، فلا يطلع عليه أحد، حتى أنظر في الأمر.

هززت لها رأسي بحذر، فابتسمت، ورفعت بإصبعها خصلة الشعر الساقطة على الجبهة، وتحركـت بعيـدا عـن الظل، ثم اختفت، فحزنت لاختفائها.

كنت أنقل الملعقة شبه فارغة، وأنـا هيمـان أكـتم أنفاسي المضطربة، فلحظتها تطل علي من النافذة، وكان هذا يحتاج لجهد كبير، لأنه ينبغي علي الالتفات يمنة فيـواجهني وجه مسعود المشغول بالطعام.

فعادت من تلقاء نفسها، لتقف فـي مكانهـا لا تهـتم لدفعات الخارجين والداخلين، كان جسمها ونصف وجهها في

الظل وعيناها – فقط – في حزمة الضوء الساقطة عليها من مصباح لا يظهر، وازدادت الابتسامة على الوجه الألق.

-٢ -

وكنت قد وقفت مع صديقي أمام بيت جديـد تبـدو حجارته الحمراء عارية من المحارة، وعبرنا أكداسـا مـن الطوب والرمل، وقال صاحب البيت: مازلنا نسـتكمل بنـاء الدور الثاني.

دلفنا إلى مدخل البيت نرتقي درجا مـن الأسـمنت، وأشار صاحب البيت إلى باب شقة الدور الأرضي المغلقة.

- هذه هي شقتي التي سأدخل فيهـا مـع عروسـي الليلة.

وكان عنقه يبدو مخنوقًا في البابيون الأسود، وفـي نور لمبة صفراء يسقط على البسطة برق وجهـه الأسـمر، وشعره كان يبين أنا مدهونًا ومصفوفًا على ناحية.

وجلسنا على طاولة في غرفة وحيدة بالدور الثـاني، كانت فتحات النوافذ فارغة مـن ضـلفها، وفـوق الطاولـة بالضبط تتدلى لمبة ضعيفة الضوء ولها مظلة تكثف شعاعها

من بقعة دائرية، وكانت النسمة التي تداعب الشـجر النـائم على فتحات النوافذ تحرك اللمبة، فيهتز النور ويسـيل مـن سطح الطاولة إلى سيقاننا.

قال العريس صاحب البيت: هنا التقـى بـالزملاء، ونطالع أوراقنا.

سأل صديقي: ولكن كيف تقرءون الورق على هـذا النور الضعيف؟

قال العريس: يشتد النور في ساعة متأخرة من الليل.

ورأيت خيالاً يتمطى من سـور السـلم إلـى أرض السطح، وبلغ طوله حدا وصل أن تدلى نصفه في الشـارع. كان الشاب صاحب الخيال طويلاً ونحيلاً، يمسك لفـة بيـده اليمنى، قال العريس: هذا مسعود.

سلم علينا الشاب، وشد كرسيا من زاوية، ثم انضـم إلينا على الطاولة.

قال العريس: مسعود من المهتمين بمتابعة أوراقنـا وهو فنان يعشق العزف على الناي.

ثم التفت إليه مبتهجا: الآن يا مسعود أنـت معهمـا اعزف لهما مقطوعاتك الجميلة ثم اتبعوني إلى دار العروس.

وراح مسعود يبحلق في وجهي وهو يفك اللفة، ليخرج نايا قصيرا وغليظًا محفورا عليه زخارف بنية، وعلى حوافه قطع فضية تبدو كخواتم اليد.

وقام العرس ليسوي حلة العرس السمراء الجديدة، وقال: أنتم لستم غرباء.. بعد أن يعزل لكما مسعود سيأتي بكما إلى العرس.

وبدأ مسعود ينفخ في قصبته، وهو لا يرفع عينه عني، ويخرج نحنحات حلقية ليهيئ نفسه للعزف، وانتفخ جانب صدغه بالهواء، وانطلق الناي محلقًا مع نسمات الهواء، وكنت أنا وصديقي قد استرخينا على الكراسي، ورجعنا بظهورنا إلى الوراء نتابع العزف المتقن، ونصفق له بعد كل مقطوعة، وفي إحدى فترات الصمت قال لي جملة وحيدة: إنني أسمع باسمك من زمان.

-٣-

صعد مسعود إلى المسرح لينضم إلى الفرقة، يعزف على الناي، والراقصة أمامه تتأود وتتقلب على عريها ألوان خضراء وحمراء وزرقاء، والعريس اتخذ مكانه على واحد من الكراسي المذهبة إلى جوار عروسه، بينما انتحيت مع

صديقي جانبا نحتسي أكوابا من البيرة، وكنت أرقبها وهـي في الصف بين الفتيات اللائي يبرقن في فسـاتين الأعـراس وكانت تلقي علي النظرة من حين لآخر، وداخ رأسي بفعـل الشبع والارتواء حتى رأيت اللمبات الملونـة تسـيل علـى الرءوس، ولانت الأجسام المزدحمة وتـداخلت فيمـا بينهـا فركنت ظهري إلى الحائط مستسلما لنشوة الشراب، فرأيتهـا تعبر من أمامي لتدخل من باب البيـت، فهمسـت فـي أذن صديقي: ثواني.. فأنا محصور.

وتركته مندمجا في التصـفيق للراقصـة النشـطة، ودخلت وراءها.

وجدتها تقف كأنها على انتظـار، فاقتربـت منهـا متشجعا، وبدأت هي الكلام: ازيك.

فسألتها متعجبا: أتعرفينني؟

قالت وهي تسلم يدها ليدي: نسيتني!

- أظن أول مرة ألتقي بك الليلة.

قالت وهي تبتسم فيشرق وجهها من جديد: ادن مني، وتأملني قليلاً حتى تتذكر، فدنوت وأنا أكبح رغبة نفسي فـي لثمها، وعدت أحملق في أشياء الدار الصامتة.

- آسف.

- انظر إلى هذه الشامة في ذقني.

فصرخت: معقول أنت!

قالت بودٍ: يا غادر إلى هذا الحد؟

قلت معتذرا: لو أنني نسيتك ما خفق قلبي لمرآك.

قالت معاتبة: خفق لمرآي! أم أنك ظننتني واحدة من إياهم أُغرمت بك؟

- لم أعشق غيرك أبدا.

- المهم كيـف حالـك؟ ألا زلـت تهـتم بـأمورك الغامضة؟

- كما ترين، ولكن كيف جئت إلى هنا؟

- أنا خطيبة مسـعود وقـد عزمنـي علـى فـرح صديقكما.

- مسعود! أول مرة التقي به اليوم.

- إنه فنان مثلك.. ومهتم بالسياسة.

- ابن حلال.

- دفعته إلى مثل هذه الأمور على الرغم منه.

- ليت الأيام تعود إلى الوراء.

- أنت تقول هذا يا رسول المستقبل.

وهممت أن أميل عليها لأقبلها، ذلك أن كل الذكريات نهضت من مكانها دفعة واحدة كأنما لم يمر على فراقنا غير ساعات، واستقبلت يدي بحنو: لا تنس نفسك..

ولم أكن قد انتبهت لانقطاع صوت الناي عن اللحـن الذي تصخب به الفرقة بالخارج.

- ٤ -

انفـض العـرس، ورفعـت الكراسـي، وأُطفئـت المصابيح، وعاد المعازيم إلى بيوتهم، ووقفت مـع صـديقي ومسعود ننتظر خروج العريس لتوديعه، وكانت هـي تقـف بالباب تنتظر مسعود ليعود بها إلى بيتها.

قال صديقي لمسعود: إنك تعزف ببراعة.

- أنا مجرد هاوٍ.

وقلت: أنا شغوف جدا بالناي. وأنت عازف ممتاز.

وابتسمت هي لجملتـي، وأطرقـت بوجهـا إلـى الأرض.

فقال مسعود وهو يبدو خجلاً: أشكرك فهذه شـهادة أعتز بها.

- أتمنى لو أزورك في بيتك لتعلمني العزف.

فلم يجب وإن كنت لمحت شيئًا كالتجهم على سحنته، وهي خرجت قليلاً، عن عتبة الباب، وأقبلت نحونا: تأخرنـا يا مسعود.

وقبل أن يذهب معها، سحبني من ذراعي، وابتعد بي قليلاً، ثم قال هامسا بصوت خرج من بين أسنانه كـالفحيح: لا تحاول أن تخدعني فأنا لن أعلمك العـزف ولـن أصـير صديقك في يوم من الأيام.

- لا أفهم ما تعني.

وأدار لي ظهره، بعد أن تركني في حيرتي لا أريم، وسار معها متأبطًا ذراعها، يخوضان فـي الشـارع حتـى ابتلعتهما الظلمة تماما، وأنا في موقعي أرقبهما في ذهـول، واقترب صديقي ليدير وجهي نحو العـريس الـذي خـرج لتوديعنا.

الكتاب فوق التل

كنت أعلم أن وراء الشارع الذي أعـيش فيـه تـلا مرتفعا، ولم أفكر في الصعود إليه أبدا، كنـت أرى الـدرج الذي ينتهي إليه والحجارة الكبيرة البيضاء التي تبطن جوانبه، كما كنت ألمح ذؤابات الشجر المغبـر تطـل مـن سـطحه وبالرغم من مروري اليومي من الشارع الموازي لم أحـاول اكتشاف عالم هذا التل.

سألته ونحن في منتصف الدرج.

- أتقول أنه مأهول بالناس؟

- سترى بنفسك.

وحينما وصلنا إلى منتهاه، نظرنا إلى أسفل، فرأينـا البيوت وقد صارت نائية وصغيرة، واستقبلنا أرضا تتنـاثر عليها حشائش مهملة، وأشجار العبل متفرقـة تتـوزع بـين جذوعها عشش من الصفيح يلهـو أمامهـا – فـي شـمس الضحى– أولاد صغار بينما جلست أمهاتهم على "الطشـوت" يغسلن الهدم القديمة وكنا نرى أسلاكًا ممتـدة بـين أشـجار منشورا عليها ملابس مبللة.

- إنك لا تستطيع تحديد البيت الذي تسكنه من هنا.

- لا أستطيع.

- يختفي وراء هذه العمارة.
- لم أكن أدري أني قريب من هذا العالم الآخر.
- أنت لم تر شيئًا بعد.
- لا تنسى أنني غريب.

كنا قد جسنا الكثير من الأماكن في هذه المدينة، دخلنا المقاهي الكثيرة، وركبنا الحافلات عشوائيا حتى تصل إلـى المحطة الأخيرة، فنتخير مكانًا معزولاً فـي محطـة نائيـة، ونفتح الكتاب الذي قررنا الاطلاع عليه، ونظل نتصفحه حتى نمله، فنعود من حيث أتينا، وكان قد قرر أن يصعد معي هذا التل لنتصفح كتابا جديدا.

لم نعد نرى من المدينة التي صعدنا منها غيـر رأس البرج التي تبرق في الشمس ومئذنتي مسجد القلعـة اللتـين تلاشتا في غيمة الغبار الرمادي، أدرنا، ظهرينا لندخل بـين بيوت الصفيح، مررنا على شاب يقتعد حجرا، كـان منكفئًـا على نفسه واضعا رأسه بين كفيه مستغرقًا في أمـر يهمـه، ومستسلما لأشعة الشمس الدافقة، لما اقتربنا منه رفع رأسـه قليلاً، ونظر إلينا ثم أحسسنا أنه لم يعد إلى حالته، بـل ظـل يتأملنا بتفحص، وللتأكد من ذلك، رنت مني التفاتـة عجلـي

إليه، فرأيته وقد أدار جسده كله جهتنا، ولم يرفع عينه عنّـا، فرددت نظرتي بسرعة، وأخذني مشهد الجـاموس والنعـاج الطليقة، كانت تميل على أطـراف الحشـائش وتنتزعهـا، وبعضها وقف متحديا عين الشمس، يجتر طعامه فـي أنـاة، نعر الجاموس وثغت النعاج بعد أن تركت طعامها لتلتفت إلينا وتنفخ الهواء من أشواقها، وتلمس الزبد السائل.

- الجميع ينظر إلينا باستغراب.
- وجوه غير مألوفة.

وطالعت اللافتات المعلقة على جذوع الشجر وعلـى الجدران القديمة، وأدهشتني أني أرى الأطبـاء والمحـامين يهجرون الدنيا الواسعة ليفتحوا المكاتب والعيادات في هـذا المكان النائي المرتفع.

- هل ضاقت الدنيا بهم؟
- هم أبناء الحي.

ودخلنا شارعا ضيقًا لننفذ منـه إلـى أرض أكثـر ارتفاعا تشرف على البيوت القليلة المتجمعة علـى نفسـها، صعدنا، وصعدنا، إلى أن استوقفنا ظل الجازورين، واستطينا نسمة الظل اللطيفة، ولم نعد نرى شيئًا من المدينة الكبيـرة،

أغلقت علينا هذه الدنيا الصغيرة، نتسمع لصياح أطفالها الذين يلهون تحتنا بأطواق من الكاوتش.

ويتوزعون على الحشائش يتقاذفون كرة مصـنوعة من جورب مشبع بالماء والطين.

كانت الأصوات تخفت حينًا، وترتفع حينًا.

وتخيرنا حجرين كبيرين، وجلس كل واحد منا علـى حجر نسرح البصر في المدى الممتد أمامنا، ونعطي ظهرينا لغابة كثيفة من أشجار الجازورين النحيلة السيقان.

- يمكننا أن نبدأ.
- مكان آمن جدا، يمكننا التردد عليه بلا خوف.
- إنني وقعت في غرامه فعلاً.

وقلّب صفحات الكتاب ذي الغلاف الأحمر، ولمحنـا صورة من أول الكتاب لرجل له لحيـة محفوفـة ومنسـقة، ويضع على عينيه عوينات دائرية، وشعره الطويل منسـرح كله إلى الوراء فيبين له جبين رحب.

- إنه غير من بدأنا به.
- دعك من كل الكتب السابقة.

وبدأ ينقض القراءات السابقة، وأوضح لي بأنه كـان مخدوعا، وأكد أن العالم كله خُدع زمنًا طويلاً بهذا الرجـل ذي الشارب السميك والحلة ذات الياقات العريضة التي يغلق أزرار صدرها جميعا حتى يخنق العنق القوي الملتف.

- وماذا عن الرجل الآخر الذي بدأنا به أول مرة.

- أي رجل تقصد؟

- الأصلع ذو اللحية القصيرة.

- لا غبار عليه البتة.

وجاء ولد صغير ووقف أمامنا، يحرك يـده لـيهش الذباب، ولا يرفع عينه عنّا، وينصت إلـى كلامنـا، وكلمـا حانت له فرصة من غفلتنا دنا منّا أكثر حتى دس وجهه فـي الصورة، وأشار إليها.

- لازال..

- نعم.. نعم رجل.. هيا اذهب لتلعب مع زملائك.

وعاند بشدة في النزول إلى أترابه، وظل يبحلق فـي الصورة.

- ولكنك تقول إن هؤلاء الرجال غرباء.

- طبعا.

- ألا يقدر رجل من عندنا..

- هناك رجال كثيرون.

- لماذا لا نقرأ لهم؟.

- لم يحن الوقت بعد.

وجاء أولاد آخرون يركضـون وراء أطـواقهم ثـم تجمعوا حولنا يرقبوننا ولا يبرحون المكان بعناد.

- العبوا هناك.

ولم يتحرك أحد من مكانه، ظلوا على ثباتهم يبحلقون في الكتاب بنهم.

- نريد أن نرى الصور.

- ليس هناك صور.. هذا كتاب.

- لمحنا صورة في أول الكتاب.

- نريد أن نراها.

- دعنا نترك لهم المكان ونبحث عـن آخـر بـين الشجر.

ولحق بنا الأولاد صائحين بالتهليل والتصفيق.

- نريد أن نرى الصور.

فاغتاظ صديقي جدا، فرفع طوبة من تحـت قدميـه وحدف بها الهواء، فزع الأولاد، وتفرقوا بين الأشجار، ثـم تجمعوا مرة أخرى في حلقة وهم أكثر حماسـة، والتهبـت أكفهم بالتصفيق، بعد أن تركوا الأطواق تنزل وحـدها إلـى الساحة التي كانوا يلعبون بها.

فحدفناهم بطوبتين، وهرعوا ليوهموننـا بـالنزول، فزلقت رجل واحد منهم، فانطلق صوته بالعويل، والتم عليـه الأولاد يرفعونه، ورأينا الشاب الذي مررنـا عليـه يتـرك مقعده، ويقبل جهة الأولاد وأشاروا نحونا باتهام.

- عيب على بغل من أمثالكما يعمل عقله بعقل عيل.

- أصروا على ملاحقتنا ونحن نريد مطالعة كتابنا.

- كتابكم أم تريدان الخلوة.

وجاءت أم الولد مشمرة الأكمام بزوبعة من الغبـار، ولحق بها جمع من النسوة والرجال، ووقفوا يقلبون في الولد الذي رفع ذراعه التي سقط عليها متألمـا، وهجمـت علينـا المرأة بشراسة تجرجرنا إلى الأسفل لنسقط وسط الجمع الذي أوجعنا لكما وركلاً.

- حتتنا موعودة بالوساخة دوما.

- ابحثوا عن مكان آخر يا أنجاس.

- كشفهم الولد فأصروا على ضربه.

ورحنا نلملم أثوابنا الممزعة، ونعود من حيث أتينـا، حين استقبلنا السلم انتبه صديقي الذي أخذته نوبة من النشيج الهستيري، فبحث عن الكتاب بين يديه لم يجده، ونظر إلـي بخجل، وأنا لم أكن أرى منه غير شبحه، ذلك أن اللكمة التي هوت على عيني، طمست نورها.

شمس السحب السوداء

وصلنا المحطة قبل أن تموت الشمس تماما، وقف القطار بين الرصيفين الصغيرين، ينفث دخانًا أبيض، يندفع إلى السماء المسقوفة بسحب سوداء نزلت أنا والمندوب لنمشي بعرض الرصيف، ركنت المخلاة على السور الواطئ، ووقفت أنفض البيرية والأفرول، فتتساقط حبات الرمل الصغيرة التي كنت أمضغ بعضها بين أسناني، وتزاحم الجنود يرفعون المخالي والحقائب يسيرون باتجاه الباب وسط نسوة بعيون سوداء واسعة يرتدين عباءات سابغة، وكان هناك بعض الأجانب بوجوه حمراء وعيون زرقاء بلون ماء البحر الذي كان يطل علينا عبر الطريق.

قلت في نفسي: وصلنا أخيرا إلى الأرض المجهولة، وهذا المندوب إن طلب شيئًا آخر سأضربه وكنا قد ركبنا قطار الثالثة فجرا من محطة القاهرة، وبعد إغفاءة طويلة من أثر الإجهاد صحوت على صحراء لا تنتهي، وتأكد مما نرى أن بلادنا صغيرة جدا، والصحراء محيط صخاب غادر، لا تحب القطارات تدفع كثبانها لتنام على الشريط، فيرتبك القطار وينزل الرجال يرفعون الكومة بعد الكومة.. وكان المشوار طويلاً ومملاً، أنهى فيه المندوب على فلوسي القليلة،

فهذا جنيه للتاكسي الذي أقلنا إلى المحطة، وهذا جنيه لرجل الشباك لينهي القسيمة وهات لنا سجائر نستعين بها على الطريق، وهات لنا سندوتشات للإفطار وأخرى للغداء، وأرى في عينيه رغبة في أجرة العودة.

قلت للمندوب: نسأل عن العنوان. فاتجه إلى العسكري الجالس على السور الواطئ، ومد إليه الورقة التي بيده، ورأيت العسكري يمد يده إلى أسفل، ويشير باستقامة ثم عمل انحرافة بيده، وفهمت أننا سنسير في طريق مستقيم ثم سننعطف قليلاً، واستقبلنا شارعا واسعا تنتصب في منتصفه العواميد عليها إعلانات لبضائع أجنبية، وعلى جانبي الشارع تفتح المقاهي أبوابها، وتصف كراسيها المزدحمة بالجنود والرجال الذين يغطون رءوسهم بشالات بيضاء ورأيت الشارع يمتلئ بعربات صغيرة تجرها الحمير، وكنت أرى من فتحاتها وجوه نسوة متسترات ووجوه أطفال يبصون بشغف، والبحر كان في نهاية الشارع مشغولاً بشجاره العصبي مع الشاطئ المسيج بأبنية قليلة الارتفاع، لما اقتربنا من نهايته سألنا مرة أخرى: نروح لقيادة المنطقة الغربية منين؟ قال عسكري المرور: ادخل أول شارع على الشمال.

ودخلنا، ثم سرنا مسافة طويلة، ورأينا سينما المحافظة تلصق الأفيش الكبير لفيلم " المجرم " وهنأت نفسي: إذن سأقضـى الوقت ما بين البحر والسينما، فقد يتحقق كلام الضابط الـذي كلمني في مركز التدريب وقال ربنا معاك. هناك حتبلبط في البحر على كيفك.. ولكن لماذا كل هذا الأسى بقلبي.

قال المندوب: جعنا، قلت له: لما نطمن على المكـان ناكل.

وعند البوابة وقفنا أمام عمود الخشب النـائم علـى برميل ثقيل، وتقدم المندوب من الحارس وسأل: فرع الشئون المعنوية ؟ أشار الحارس بيده الملفوف عليها شارة حمـراء: ثالث باب على يمينك. وسألني: مستجد؟ قلت: آ....

كان الفناء المفروش بالرمل النظيـف واسـعا، فـي الوسط تماما، ينتصب عمود ينتهي بعلـم يرفـرف والـريح العنيفة جعلته يطرقع من حين لآخر، والفناء مفتـوح عليـه غرف كثيرة مظللة بالصفيح المرفوع على أعمدة الخشـب، وقفنا عند الباب المكتوب على جانب منه "الشئون المعنويـة" ووجدنا العسكري الجـالس وراء منضـدة عليهـا الجرائـد اليومية، وطابورا من العساكر يمتد خـارج البـاب كـانوا

يصخبون ويطالبون العسكري بـأن يحـافظ علـى الـدور، انحشرنا بين الطابور لنصل إليه وسـأله المنـدوب، وهـو لم ينتظر ليتم كلامه، وقف ليسلم علي، وقال: مستجد؟ قلت: آه... قال: ادخل. ونادى: يا عبد الرحمن وخرج عبد الرحمن في البلوفر البني والبنطلون البيج وأخذني من يدي إلى حجرة مظلمة، تفوح منها رائحة طبيخ، وألقيـت المخـلاة جانبـا وأخرجت منديلي المكرمش لأمسح عرق الوجه، قعدت أنـا والمندوب على الكرويتة الممتدة بعرض الحجرة، وقعد عبـد الرحمن على التربيزة المرتفعة تحت الشـباك، فلـم تظهـر ملامحه في خلفية النور، وقال: أظن مؤهلات قال المندوب: أيوه. قال: وأنا خريج حقوق، ودفع إليه المنـدوب الأوراق، الخاصة بي، فقربها من نور النافذة، وقرأها بإمعـان وقـال: ملحق على فرع سيدي براني وسألته بألم: يعني إيه؟ قـال: هنا الخلفية.. وهناك فرع المقدمـة والقيـادة فيـه. وقـال المندوب: ونروح لها إزاي؟ قال عبد الرحمن: دلوقت توصل أتوبيسات الضباط وسيادة العقيد عبد القادر قائد الفرع حيكون فيها، وياخدكم معاه.

همس المندوب في أذني: أنا جعان، قلت: وأنا أجوع منك.

وسمعنا عبد الرحمن فنزل عن الترابيزة ليسحب إناء من تحت الدولاب الصاج. وقال: معاش دول اللـي بـاقيين. ونزلنا إلى الأرض، وسحب كل منا ملعقة، وبدأنا نأكل الرز المخلوط بماء الكوسة، كنت لا أحس طعما، فرحت أبلع دون استمتاع، وقبل أن ننتهي دخل علينا العقيد، فارتبكنا وألقينـا بالملاعق على بقايا الرز، تقدم منه عبد الرحمن ووقفت أنـا في وضع انتباه بعد أن أديت التحية العسكرية التي تعلمتهـا في مركز التدريب، فوجئ العقيد، ثم سأل: إيه ده؟ وقال عبد الرحمن: عسكري مستجد يا أفندم ملحق بالفرع. وتطلع إلـى الورق الذي قدمه إليه وقال: دا يجي معانا على سيدي براني. ثم وجه الكلام إلي: جهز نفسك.. الأتوبيسات حتتحرك بعـد ربع ساعة.

وتقدم المندوب إليه بخوف: ممكن الاستلام هنـا يـا أفندم؟ قال وهو يدير ظهره خارجا: لا.. لازم تسلمه القيادة.

خرجنا من البوابة لنقف تحت الشجرة الطالعة مـن السور، الأتوبيس قرب الرصيف، ومن بابه المفتوح خـرج

ضباط يفركون أيديهم من البرد، واتجهوا إلى الكشك القريب ولمحت العقيد واقفًا مع جماعة من الضباط يتكلمون بصوت عالٍ، يتهامسون قليلاً ثم يصخبون بضحك يعقبه ضرب على الأيدي، اقترب المندوب مني وأخذت حذري، وقلت ها هـو سيفصح في أذني بطلب آخر، وأنا سـأواجهه بقـوة قـال: تشتري لنا علبة سجاير. قلت: ماعدش معي فلـوس. قـال: يعني ناخد المشاور من غير سجاير. قلت: وأنا أعمل إيـه؟ قال: اشتري علبة صغيرة. قلت: ولا سيجارة. قـال: طـب تعال نشرب شاي على القهوة. قلت: الأتوبيس ليطلع.

واقتربت من حارس البوابة اسأله: الأتوبيس بيطلـع الساعة كام؟

قال: دلوقت حالاً، وسألني: بعتوك براني؟ قلت: آ... قال: معاش كله جيش، وسألته عن هذه المدينة، فشرح لـي أنها ليست مدينة إنما هي قيادة المنطقة وفروع الأسلحة مـن كل نوع، وأنها تبعد عن "مطروح" بمائة وخمسين كيلو متر، وقال إنني لو أملك وساطة يمكنني البقاء في "مطروح" فهنـا تنهي عملك الساعة الثانية، ويصبح الوقت ملكًا لك، تستطيع أن تقضيه في أي مكان، على البحر، على المقاهي، أو فـي

التنزه في الشوارع، ثم إن هناك البنات اللائي يملأن العـين ويفرحن القلب، وفي الصيف تعيش الجنة الحقيقيـة، تلتقـي بالمصطافين، وتذهب إلى الشاطئ لتستحم وسط بنات، مـن جميع الأجناس، حيث يبدين أفخاذهن وأثداءهن، وحكى لـي همسا أنهم في الصيف يهربون البنات إلـى هـذه الغـرف ويفعلون بهن كل ما ترغبه النفس، ولم يتم كلامه فقد سمعت صوت العقيد ينادي: بينا يا ابني. فأفقت من الحلـم، وازداد الأسى بقلبي، ولما وضعت قدمي على سلم الأتـوبيس أدفـع المخلاة أمامي، شعرت بأنني أودع الدنيا، والمنـدوب كـان ورائي يستعجلني والعقيد كان في أول كرسـي، اسـتوقفني ليقول لي: اقعد في الآخر.. وما تنزلش، إلا لمـا تشـوفني أنزل. قلت له: حاضر يا أفندم.

واحتضنت المخلاة بين يدي، وسرت بهـا مرتبكًـا، أدوس الحقائب المكدسة في الممشى وأخبط أكتاف الضـباط، فيدفعونني من ظهري: حاسب. ويخبطونني في جنبي: أنـت أعمى. ألصقت وجهي بزجاج النافذة، وجلست إلـى جـوار المندوب الذي كان قد سبقني، قعدت على الطرف إلى جوار النافذة المغلقة أمسح وجهي بكم السترة، وظللت صامتًا حتى

هدأت خفقات قلبي، نظر المندوب إلي بعداء، وأراد أن يتكلم فتفاديته بالانشغال بتأمل الأرض التي تجري إلـى الـوراء، كانت السحب السوداء قد تمزقت والشمس المحتقنـة ترمـي أشعة قانية تلون الحواف، وتحتها كان نبات شائك ملقى على امتداد الصحراء، ورأيت فتاة بدوية متلفعـة بشـال قطيفـة أحمر، تمسك عصا، وتسير وراء نعـاج ضـامرة ترعـى النباتات، والهواء كان يندفع في وجههـا، فيرمـي أطـراف الشال إلى الخلف، ويرمي ذيل الجلباب المرفرف وقسـمات جسمها النحيل تتشكل في قبضة الريح الطليقة، تكويرتا النهد، ورهافة الوسط، وفخذان مدملجان بينهما فراغ ممتلئ بالهواء، توقفت عيناي طويلاً على البنت، حتى انفلتت مني، ورحـت أبحث عن غيرها، فلم أجد، قلت: أتابع موت الشمس. فهناك في البلاد الأخرى لم أر الشمس حين تموت.. هنا أستطيع أن أفضح لعبتها.. أركز فيها النظر وأرى انسـحابها البطـيء، والشمس صارت كرة حمراء ملتهبة، تقف في الفراغ الأزرق بين كتل السحاب، قلت: لن تفلت مني.

ورأيت زحفها الهين وسقوطها الخفي حتى لامسـت الأرض، وثبتت عليها مدة طويلة، فتآكل جزء من محيطهـا

فتهشمت، وتآكل نصفها، ثم ثلاثـة أرباعهـا ولـم أر أبـدا اختفاءها، كيف سقطت في جب الظلمة؟ هل غفوت في هـذه اللحظة؟ لا أعتقد، فجأة توارت كأنها أخرجت لـي لسـانها الخفي، وقالت: لن تكشف لعبتي أبدا، وصـارت الصـحراء بلا شمس، انطفأ الجانب الغربي الـذي يسـرع الأتـوبيس تجاهه، وانسدل ظلام أسود، فبرز ضوء لمبـات الأتـوبيس ضعيفًا أصفر يوزع نورا عليلاً، يسقط على رءوس الضباط المكشوفة ركنت رأسي على زجاج النافذة البارد، ونمت من تعب الملاحقة.

الـ ـ دوران

بعد أن أدرت ظهري لضجة "الـدوران" والأنـوار والمقاهي المفروشة على الأرصـفة بـدأت أرقـى السـلم الحجري، وكان علي أن أكون حـذرا، لأن الكتـل الدبشـية البيضاء، كانت مقتلعة في أكثر من موضع، وفي ظلمة الزقاق المرتفع كان علي أن أتفادى أكوام الزبالة وجلود الحيوانـات المدهوكة بالأرض، عند الباب الـذي ينفلـت مـن فرجتـه المضيئة نسيج من الدخان يبدو متموجا في شريط الضـوء، تتخطفه الحلكة، فلا يبين منه شيء، وكان أنفي تشمم رائحـة الحشيش.

ورأيت سكان الدور الأرضي يفترشون مدخل البيت على حصير من البلاستيك مهترئ، الرجـال أمـام الموقـد المصهال بالجذوات الياقوتية، وبالخلف تجلس النسوة مربعات على درجات السلم وفي مداخل الحجرات.

سألت عن منصور فأشار أحدهم بيده إلـى أعلـى، ولم يزد عن ذلك، فمرقت من بينهم، وأحنت النسوة ظهورهن لأعبر من بينهن إلى الـدرجات الزلقـة وسـمعت القهقهـة والهمس الخفي بعد أن أخفاني ظلام السلم.

يسكن منصور الدور الثاني في إحدى هذه الغـرف الثلاث التي تنفتح على مساحة مبلطة ومرحـاض مشـترك، يسكن حجرة مجاورة لحجرة العجوز التي تبرز قابعة أمـام وابور بوش، في نور داكن لا يبدي غير أشباح الأشياء، في كل مرة أحاول، ألا تراني العجوز، لأتفادى نظرة العداء التي تلقيها علي من جانب عينها، ولكنها لمحـت شـبحي داخـل " الزنط " الميري، فألقيت عليها تحيـة المسـاء، فهمهمـت بصوت باهت، وأدارت وجهها في عمق الحجرة.

حاولت التودد إليها أكثر من مرة، ولكنها تأبى تقربي بحزم، وقد نقل لي منصور رغبتها وهو يضحك: هذه المرأة لا أدري لم لا تطيق وجهك رغم كثـرة صـحابي إلا أنهـا أشارت عليك بالذات وقالت هذا الولد لا تأتي به أبـدا، هـو الذي أفسد عقلك، وسيقضي على مستقبلك.

وأخذت كلامه بخفة، وقلت: والله لا أعرف من منـا سيضيع مستقبل الآخر، دنوت قليلاً من بابها لأتأكد من وجود البنت التي تقيم معها، فرأيتها مقبلة من ركن الغرفة البعيـد ممسكة بشيء في يدها الممدود للعجوز فغمزت للبنت بعيني، فهال وجهها في ظلام الحجرة، وقلت للعجوز بـروح الـود

كأنما أمارس طقسا آليا: مساء الخير يا حاجـة.. منصـور موجود؟

وانكمشت في ثوبها، ومال معظـم البـدن السـمين المفروش على "الكليمة" وادعت الاستغراق في الإناء، الـذي يتصاعد منه البخار.

وتركتها في حالها لأطرق الباب المجـاور، ارتـج الباب لطرقاتي، ودققت عليه مرة ومرتين دون مجيب، حتى جاءني صوتها رغم أنف العجوز: منصور فوق.

وأقبلت على السلم الخشبي الذي تنتهي درجاته إلـى ثغرة دائرية مفتوحة في السقف وهتفت: يا منصور.

فتدلت سيقانه على رأس السلم، وبدأ يهـبط نحـوي ممسكًا بيده كتابا لمحت عنوانه "التطور اللامتكافئ".

وقلت قبل أن نتحاضن كالعادة: أما زلت تتعارك مع هذا الكتاب؟

- رغم أني ضد وجهة نظر المؤلف كاملة إلا أنـه لا يخلو من وجاهة.

- هذه ثاني أجازة لي وأراه لا يفارق يدك.

قال وهو يعالج قفل الحجرة: أنت تعرف طريقتي في القراءة.

كانت الحجرة واسعة قليلاً من أمام وضيقة من الخلف يقطعها حائط المنور المفتوح عليه نافذتان ترى العين منهما حالة الجيران، في الواجهة منضدة مكدس عليها أشياء كثيرة، كتب وأكواب فارغة وفرشاة للشعر وساعات قديمة لا تعمل، وكرسي وحيد قاعدته من خشبتين مفارقتين، وعلى الحائط مرآة مثلثة الشكل، ورف عليه الكتب المجلدة ومشجب عليه معطف كحلي وسروال، وعلى الأرض مرتبة صغيرة متربة، وخرقة كبيرة ممزقة وأكداس من الكتب ونعال مهترئة متناثرة في كل مكان.

وضعت الحقيبة على الأرض وخلعت "الزنط" وجعلته فوق الكرسي لأتمكن من الجلوس.

قال: دائما أنت موعود معي.. الليلة ستقوم بتوزيع الأوراق على البيوت.

- لن أستطيع أن أعاونك في هذا.

- إن الخدمة في القوات المسلحة تدفع الخوف إلى قلبك دفعا.

- ولكني أعجب بشجاعتك في نفس الوقت، لا أدري كيف تواتيك الجرأة على النوم ملء جفونك بينما نحـن فـي الشارع نتنقل من بيت إلى بيت ألا تخشى أن يكبسـوا علـى الحجرة ويقبضوا عليك؟

- من هذه الناحية لا تخشى علي.

وسألني عن قراءاتي للجنود الذين أقضي معهم المدة، فحكيت له كيف أنني أحاول معهم، ولكنهم يبدون كأنما هـم مقبلون من عوالم نائية، ولا أستطيع التعامل معهـم إلا فـي الحدود الضيقة، كأن أقرأ لهم قصائد من دواوين العامية فهذا هو ما يهللون له بشدة، وإن كنت قد كسبت محبتهم، صاروا يلتفون حولي، ويناصرونني على الضابط الذي كثيـرا مـا يشتبك معي في حوار سياسي يستهلك معظم الليل.

وسمعنا الطرق الخفيف على الباب، ولمحت جانـب وجهها الفرح، كانت قد غيرت خلعة العمل، وارتدت جلبابـا من الكستور تتوزع عليه زهور صغيرة صفراء على أرضية بيضاء، وشعرها المبال سقطت منه خصلات علـى الجبهـة الوضيئة.

مالت نحونا، وسألت: أعمل لك شاي يا منصور؟

- شكرا.

قلت له هامسا: ولكني أريد شايا.

- سأضطر للنزول بعد قليل.

كانت تقف جانبا بحيث لا يراها غيري عاقدة يـديها فوق قبة بطنها، والبسمة لا تفارق وجههـا، ورفعـت لهـا إصبعي بإيماءة تفهمها: واحد فقط.

وأشارت بكلتا يديها على عينيها، واختفت، وشعرت بقلبي ينتفض، ويدفق الدم ساخنًا في العروق، فدب النشاط في جسمي، وقمت عن الكرسي لأذهب إلـى الحمـام فأغسـل وجهي. عند عودتي وجدت على المنضدة كوب الشاي يحوم على سطحه بخار دافئ، ومنصور جاب لفائفه من كرتونـة موضوعة خلف نافذة المنور وبدأ يدسها في حقيبـة جلديـة قديمة، ووقف متأهبا للخروج.

قلت له: الوقت مازال مبكرا.

- عندي موعد معهم.

- لولا أني قادم من مشوار بعيد يهد البدن...

- أنا أحسدك على قلبك الميت.

سمعت السلام الجمهوري ينهي إرسـال تليفزيـون الجيران وأنا ممدد على المرتبة في ظلام الحجـرة، وبـدأت حواسي تتحرك في رقادها، وكنت أرى كتل الأشياء في نور باهت صادر من المنور، وقمت كاتما أنفاسي لأرفع تربـاس الباب، ورأيتها تدخل بكتفها من البـاب، فأمسـكت بكفيهـا الباردتين، وأعدت غلاق الباب، وسحبتها نحو الجدار، ووقفت لصقها وهي مستسلمة تماما واستطعت رغم الظـلام تلمـس ملامح البهجة بلقياي.

- تأخرت هذه المرة.

قلت وأنا أميل لألثم جانب العنـق النـابض: شـهر لا يزيد ولا ينقص.

وشعرت بنهديها ينبضان في صدري، فمددت يـدي لألملم بدنها النحيل بين ذراعي.

- يا لها من مدة طويلة.

- ظننتك وقعت على أخرى في الموقع الذي تعـيش فيه.

فحبست الضحك المفرد في صدري، وقلت: إن عيني لا تقع على امرأة إلا من نافذة السيارة وهي تعبـر شـوارع مطروح.

سألت باندهاش يكمن فيه الرغبة في التأكـد: يعنـي وحدتك في مكان صحراوي خالص؟

قلت وأنا أسحبها إلى المرتبة: عيني لا تقع إلا علـى عشرين من الجنود العادة الذين يقيمون معي في نفس الخيمة، ولا أرى النساء إلا على شاشة السينما التي أعرضـها فـي الوحدات.

فانحلت يداها، وسقطتا بإهمال فوق الخرقة المكومـة في جانب، وركنت ظهرها على الحائط القريـب، فتقـدمت نحوها لأغوص في لحمها المبـاح، حـين أردت أن أجمـع شفتيها في شفتي، أدارت وجهها بعيدا، وقالت: ولكن إلى متى تظل....

قلت وأنا أحاول استعادتها حتى لا تتمادى فيما هـي مقبلة عليه: هانت كلها شهور قليلة وأنهي الجندية.

واستحوذت عليها تماما، وأسـقطت رأسـها علـى الوسادة المبرومة، وضممتها إلى صدري بعنف، وسبقت يدي

إلى مواضع الإثارة فيها، حتى استسلمت تماما، وانتبهت على زحفة القدم خارج الباب، وحين وضعت عينًا واحـدة علـى الفرجة واجهتني العين الأخرى في الخارج محملقـة علـى اتساعها، فخفق القلب، وكادت تند عني الصـيحة المهلكـة، ولكني تماسكت، وأسندت ظهري على الحائط، ورأيت الشبح في ظلام الخارج يتحرك بعيـدا، ولا أدري إن كـان هـبط درجات السلم أم عاد إلى حجرة الجدة المجاورة.

قالت حين عدت إليها مخضوضا: ربما تكون جدتي.

- لا أدري.. لم أر غير عينًا كبيرة تحملـق داخـل الحجرة.

- من الأفضل أن أعود حتى لا تكتشف خلو مكاني.

وتركتها تذهب، وتفرغت للآلام التي توخز ساقي..

انتبهت على النور الساقط على وجهي من النافـذة، ولم أجد منصور إلى جواري كما اعتدت في الأيام السـابقة، ولم أعثر له على أثر، وتأكدت أنه لـم يعـد منـذ فـارقني البارحة.

من الأفضل أن أجمع أشيائي وأعود إلى البلد قبل أن يقع المحظور. ووضعت "الزنط" على كتفي وأخفيت وجهـي

بطرطوره، وحملت الحقيبة دون أن أغسل وجهي نازلاً إلـى الشارع متواريا عن سكان البيت الذين لم يسـتيقظوا بعـد، هبطت السلالم الحجرية، وتفاديت العودة إلى "الدوران" الذي دبت فيه يقظة الصباح، ودخلت شوارع الحـارات الضـيقة، كانت الأبواب لم تزل موصدة... وشعرت بالجوع يقـرص معدتي، فأكدت لنفسي أنني حين أصل إلى ميدان المحطـة، سأنعطف إلى مقهى " العلمين " حيث أتناول إفطاري وأشرب الشاي. ولمحت وأنا أعبر الشوارع الساكنة أوراقًـا متنـاثرة أسفل عتبات الأبواب، ملت على واحدة منها، ورأيت الخـط الأسود الغليظ الذي آلفه، وتحركت عاصفة هوائيـة خفيفـة، فتحركت الأوراق في موجة واحدة تتضارب بين الشـوارع الضيقة، وكانت هي الصوت الوحيد في السكون.

شتـــاء المدينـــــة

شارع " قدري" وراءنا، وبدأنا ندخل حارة "دبشة" كل شيء كان نائما عدا قطة صغيرة تلبـد بـالقرب مـن كـوم الزبالة، وتطلق مواء متواصلاً يرعش بدنها النحيل، واستقبلنا عند الباب العريض سلم تآكلت درجاته في المنتصف والتفت إلي حمادة: هذا هو البيت:

- رقم سبعة.. أليس كذلك؟

وحاول أن يخفي الدهشة التي كانت تبدو على وجهه.

صعدنا الدرج متشبسين بالدرابزين الحديد. وتلمست يدي طبقة الصدأ التي تعلوه. والتقينا بقطة أخـرى. مرقـت بسرعة من بين سيقاننا، بعد أن أسـقطت الصـفيحة التـي أفرغت محتوياتها على البسطة.

الباب كان طويلاً له شراعة من حديد وزجاج دفـع حمادة جرمه الكبير ودلف إلى الداخل، وكنت معه في الصالة المظلمة. أتشمم الرائحة الراكدة للمكان المجهول. وشعرت به يندفع أمامي مادا إحدى يديه. وقال هامسا: خلي بالك أمامـك جدار.

وكنت قد صدمت به قبل إخباري، فجعلت الحقيبة في يد واحدة وقدمت اليد الخالية إلى الأمام. وأضيء الممر فجأة

وظللت لفترة أستوعب المكان. ينتهي الممر بشرفة سـقطت سقط أرضيتها. وبانت قضبان الحديد مـن خـلال الفجـوة المهدمة. وكان باب الشرفة مركونًا على الحـائط كعجـوز مصاب بالربو.

- هذه هي غرفتي .

دخلـت وراءه لأرى حجـرة لهـا أرض خشـبية لا يفترشها شيء هناك في آخر الركن سرير سفري صـغير عليه ملاءة بيضاء ناصعة ودولاب من ضلفتين عليه حقيبـة سف كبيرة، ومنضدة يتدلى فوقه بالضبط مصباح امتد سلكه من السقف المرتفع وعليه غطاء من الصاج يجمع النور فـي بقعة وحيدة فوق المنضدة.

بدأ حمادة يخرج محتويات الحقيبة الورقية ويضـعها على المنضدة وكنت قد جعلت حقيبتي بين قـدمي، ورميـت نصف بدني بعرض السرير وقلت له: أنت تبالغ فهي حجرة معقولة.

هز كتفه بإهمال وقال: لكن لا أستطيع التكيف معهـا أبدا.

- هو مكان مؤقت حتى تستقر أمورك في العمل .

- اخلع هذا اللباس الميري فأنا لا أطيقه وارتـدي البيجامة .. هل معك بيجامة؟

- معي.

وقمت عن السرير، ونظرت يدي إلى أعلـى وإلـى أسفل، ودرت بجذعي حتى طقطق وانحنيت علـى الحقيبـة لأفتحها، فسقطت هذه الورقة تحت قدمي، رفعتها بين يـدي واقتربت من نور المصباح " اترك هذه الحجرة وإلا قتلتـك فورا ".

صحت فيه : انظر

طالع الورقة التي ارتعشت بين أصابعه، ثم نفخ بملء شدقيه : ها هو يعود للتهديد من جديد، ورفع النظـارة عـن وجهه ليضعها على المنضدة فإذا هي فوق ورقة مماثلة اترك هذه الحجرة فورا وإلاّ قتلتك الليلة.

- من هو؟

- لصاحب هذه الشقة أخ كان يقيم هنا وحده وحينما احتاج لتأجيرها أخذه ليقيم معـه فـي الحجـرة الأخرى ولكنه رفض تماما النوم وفضـل فـي

الممر الذي دخلنا منه وأنا لا أمانع في بياته هنا أثناء غيابي في البلد.

- قد يفعلها ويقتلنا معا .. الاحتياط واجب.
- إنه أبله قليلاً
- هذا أدعى للاحتياط.

وبدأنا نرفع معا المنضـدة لنجعلهـا وراء البـاب. وكدسنا فوقها الحقائب والكراتين، وجئنا بالكرسيين وجعلناهما مقابل السرير الذي جلسنا عليه مخففين من ملابس السـفر، وبدأنا نأكل عشاءنا بعد أن فضضنا عنه لفائفه، وفردناه على الكرسيين.

قلت: الله يجازيه كنت أود لو أغسل وجهي من غبار الطريق.

- نحن نريد الماء لأكثر من غرض، على العمـوم الصباح رباح.

بعد أن انتهينا، مسحنا أفواهنـا بـالورق. وأعـددنا السرير للنوم، ثم أطفأنا المصباح وتمـددنا علـى السـرير، وفردنا اللحاف والبطانية على أبداننا المرهقة.

قال حمادة: أخوه دائم المصاحبة لبنات من الشوارع يزرنه في حجرته بينما الآخر يقبع منتظرا في الممر.

- هل هم حقا من عائلة الششتاوي؟

- جيلنا لم يعش مجد آبائهم، ولكن سمعت الكثير عن هذه العائلة. هذان الولدان هما آخر الأحياء من فرع أبيهما تركا البلد بعد أن جار الزمان على الأب ولحس ثروته الطائلة بعد أن سلب منهما الدار المرهونة تنكر لهما الآخرون ولأنه لم يعد لهما أحد قدما إلى القاهرة ليلتقطا رزقيهما، وحصل الأخ الأكبر على هذه الشقة من سنوات عدة.

- أنت بحاجة إلى مدفأة.

- حين أكون وحدي أدفس وجهي تحت الغطاء وأتدفأ بأنفاسي.

- وهل الأخ الأكبر في حجرته الآن؟

- لا أدري.. فأنا نادرا ما أراها مفتوحة ولا ألتقي به غير مرات معدودة حين أستيقظ مبكرا وأجده في الحمام.

وسمعنا الخطوات الحذرة في الممر، وأضيء النور الذي سقط علينا من الزجاج أعلى الباب.

- ها هو يعود.

فانكمشت نحو الجدار، وغطس حمادة قليلاً في قعر السرير، وسمعنا الباب وهو يدفع ولكن الأثقال حالت دون الفتح.

قال حمادة هامسا: المشكلة أن الحجرة غَلْقها ضعيف.

وسمعنا الآخر يزوم ويخبط رجله في الأرض. وجاءنا صوته من بين فرجة الضلفتين.

- سأذبحك.

وازددنا انكماشًا تحت الغطاء، حتى سال منا العرق برغم البرد الشديد ولم نعد نسمع شيئًا.

- يا ترى ماذا يفعل الآن هل ذهب لإحضار السكين؟

- لا تخف ربما ذهب إلى الحمام.

ثم عاد صوت الخطوات الحذرة مصحوبا بخرفشة أوراق.

- ربما يفترش الجرائد القديمة لينام عليها كما يفعل كل ليلة.

- هل يفعل ذلك معك دوما؟

من حين لآخر.. ولكني أراه كل صباح ممددا علـى جرائد تاركًا بطنه الكبيرة عارية بينما باب الشرفة مفتوحـا. وأدهش وأسائل نفسي ألا يشعر بالبرودة أبدا..

- أريد أن أرى شكله.

وزحفت على اليدين والساقين جهـة البـاب وقمـت لأنظر من ثقب المفتاح فرأيت شابا سمينًا له وجه أبيض كبير ملطخ ببقع من الشحم على الأصداغ وفوق الأنف، وشـعره الأكرت كان كثيفًا ويسقط حول رقبته المدفوسة في " بلـوفر" صوفي ممزوع في أكثر من مكان، كان يرتكن على الحـائط وقد خلع نعله الضخم خارج فرشة الجرائد مادا سيقانه علـى آخرها لأرى القدمين العظيمتين بوسخهما المنبث حتى طرف البنطلون المرفوع قليلاً على الساق المشعرة.

كان يقلب في الجريدة ويحملق في الصور.

- إنه يطالع الجريدة.

- كل ليلة يعود بـ"الجمهورية" يظل يتصفحها حتى يسقط في النوم فورا.. ويترك النور مضاء إلى الصباح.

عدت إلى مكاني الدفيء وسألت حمادة: كيف سيأتينا النوم ونحن على هذه الحال من الهلع؟

- لا تهتم.. حاول أن تنام.

- أنا بحاجة شديدة للنوم، ولا أدري كيف سأستيقظ في الخامسة دون منبه؟

- أجل ذهابك للجيش وأنا أفسحك في الغد فسحة جميلة.

- لا أستطيع.. الغياب في الجيش مسئولية وأنت سيد العارفين.

وسكتنا لنحاول أن نتلمس أطياف النوم التي بدأت تحوم على رءوسنا.

بعد فترة لا أدري إن كنت نمت بالفعل أم أن حلما ما بدا يتسرب تحت أجفاني المطبقة سمعت الدفع على الباب، والمنضدة استجابت للدفع فتزحزحت إلى الوراء، ثم أعيد غلق الباب، وانحرفت بعيني نحو حمادة فوجدت وجهه تحت الغطاء. فهززته بكوعي. فقال من تحت الغطاء: أنا سامع. ورأيته – على بقايا نور الشارع الأصفر – يقبل نحونا في كتلة شبحية مهولة. مد يده على وجهينا قلت في سري: هذه هي النهاية سيطبق أصابعه على أعناقنا، وكانت يدي في يد صديقي تحت الغطاء. وضغطت عليها بقوة لأنبهه ففهم

قصدي. ولكننا أحسسنا بالبطانية تسحب من فـوق اللحـاف ليعود بها نحو الباب.. وسمعته يقول: حتـى أنـت تسـحب النساء إلى حجرتك.

بعد أن أحكم غلق الباب.. سمعته يتأوه ويطلق جعيرا مصحوبا بضربات قوية من رأسه في حائط الممر. فانحـل ضغط اليدين المرعوبتين تحت الغطاء واستدرت على ظهري بعد أن رفعت حافة الغطاء لأتنفس الهواء البارد.

صدر للمؤلف:

١- الضحى العالي – قصص – دار شهدي – ١٩٨٥.
٢- عكس الريح – قصص – مختارات فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٧.
٣- خبز الصغار – قصص للأطفال – دار الفتى العربي – ١٩٨٨.
٤- عطش الصبار – رواية – دار الهلال – ١٩٨٩.
٥- وش الفجر – قصص – مختارات فصول الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٣.
٦- أسد السيرك – قصص للأطفال – دار الفتى العربي – ١٩٩٤.
٧- ترنيمة للدار – قصص (مختارات) – الهيئة العامة لقصور الثقافة (أصوات) – ١٩٩٥.
٨- طفولة الكلمات – قصص للأطفال – الهيئة العامة لقصور الثقافة (كتاب قطر الندى) – ١٩٩٦.

تحت الطبع:

١- الجزيرة البيضاء – رواية.
٢- الأيام الأخيرة للجهل – رواية للأطفال.
٣- هكذا تتكلم الأشياء – قصص للأطفال.
٤- حقل صغير – قصص للأطفال.